مجموعة قصصية

خَلوة الشيخ عارف

محمد مهدي صادق

بـطـاقـة الـكـتـاب:
اسم الكتاب: خلوة الشيخ عارف
اسم الكاتب: محمد مهدي صادق
نوع الكتاب: مجموعة قصصية
عدد الصفحـات:111 صفحة
المقاس: 14x 20
رقم إيداع:
الترقيم الدولي:
الطبعة: الأولى، 2023م

رئيس مجلس
الإدارة
مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:
00201129195867-00201033966291

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضمن للناشر عدم التعرض من الغير بخصوص الملكية الفكرية, كما صرح أن هذا الكتاب ليس في مضمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

فريق عمل

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

فريق عمل

سحر الروايات - ShrElRawayat

تصـــــــــميم غـــــــــلاف:

تـــــــــــدقيق لغـــــــــوي:

الـتـنـسـيـــــق الـداخـلـــــــي: نــــــــرمين ســـــــرور

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

إهداء

إهداء مميز للقارئ الذي سيدفع (خَلوة الشيخ عارف) لاعتلاء منصات التتويج في هذا العالم أو ربما عوالم أخرى .

مقدمة

تتداعى أفكار المجموعة القصصية (خَلوة الشيخ عارف) لتُشكل مزيجًا متنوعًا من الفكر الأدبي الفلسفي الميتافيزيقي بصبغة اجتماعية ، لا تخلو من محاولات مضنية مكثفة للتوغل داخل النفس البشرية الإنسانية و التي تحمل العديد من التناقضات و الإرهاصات العبثية و لحظات الضعف و الخوف و الإذعان للمجهول و ربما للمعلوم القهري .

تشمل المجموعة القصصية ست عشرة قصة مختلفة في السياق و الأطروحات و الملامح ، تتطاير القصص منتشية و متواثبة من حين لآخر ، و من أجواء لأخرى .

طواحين العشق

وثبات رشيقة متواترة تختصر بها سهام درج السلم الضيق ، هي تعول دائمًا على رشاقة جسدها و وزنها القليل ، سهام في الثانية و الثلاثين من عمرها ، ولم يثبط من عزمها و عزيمتها لهيب ظهيرة يوليو المصاحَب برطوبة مرتفعة تجعل من التنفس الطبيعي أمر صعب المنال ، بضع دقائق كانت عبارة عن مفاوضات حوارية لا تخلو من شبه مشاحنات تبدو آثارها على وجهها مع أحدهم بأحد مكاتب الطابق الرابع بواحدة من بنايات وسط البلد العتيقة ذات العبق التاريخي ، لينتهي الحوار بابتسامة طفيفة على وجهها بعد أن حصلت على حفنة من الأوراق المالية لتقبض عليها راحتها كمن أحكم قبضته على مقاليد حكم و سلطة قد نشدها هو و أجداده منذ عقود أو قرون ، تعود أدراجها و تهبط درج السلم برشاقة و مرونة أكبر بكثير من صعوده ، تخرج سهام ذات الملامح الجامدة نسبيًا متنفسة الصُعداء من تلك البناية تجتاز شارع تلو الآخر متجهة لإحدى مقاهي شارع سليمان الجانبية ، كما اعتادت أن تجلس عليها مع فؤاد والذي يكبرها بثلاثة أعوام فقط ، وقد كانت لتوها على موعد مع لحظات سعادتها و نشوتها الخاصة والتي تعد أمرًا نسبيًا تختلف من أحدهم للآخر ، نشوتها الخاصة تكمن حينما تقوم بتحصيل بعض مستحقاتها المادية لدى مكتب توريدات ملابس جاهزة والتي تعمل معه (بالقطعة) من منزلها ، تعمل سهام في حياكة و تفصيل الملابس ، تلك المهنة التي توارثتها عن والدتها و والدها رحمة الله عليهما ، فقد وافتهما المنية قبل خمسة أعوام إثر حادث سير أليم ، تصل سهام للمقهى المنشود لتُلقي بنفسها على أحد المقاعد الشاغرة ، مستعيدة رباطة جأش أنفاسها ، ممسكة بنظارتها الطبية من على وجهها لتعيدها لهيئتها الأولى قبل أن تمتزج حبات العرق بزجاجها الغليظ ، لم تمر سوى دقائق معدودة ليستقر أحدهم على المقعد

المقابل لها ، تكسو ملامحه تبعات قسوة زمن ألمّت بشيخ جاوز السبعين و قسمات وجه لمحارب عتي هُزم في كل معارك حياته إلا من معركة ما زال إعلان نتيجتها معلقًا على جَلده و مثابرته ، شعر رأس و لحية و شارب أرهقهم الشيب سوى من بعض الخصلات السوداء التي أبت إلّا أن تذكره أنه ما زال في الخامسة و الثلاثين ، فؤاد يعمل بأحد محلات ملابس وسط البلد ، محاسبًا أو كاتبًا أو بائعًا ، هو نفسه لا يدري تحديدًا ماذا يكون و ماذا يعمل ، فصاحب المحل (الشاب الذي ورث تلك المحل بعد وفاة والده و قد كان هو وريثه الوحيد) يثق به و يوكل له القيام بالعديد من المهام و مع ذلك راتبه بالكاد يكفيه هو و والدته المسنة ، قد يدخر القليل بعد مصروفاته ومصروفات علاج والدته وقد لا يستطيع استقطاع جنيهًا واحدًا عدة أشهر ، ولكن على ما يبدو أن الأمر اليوم قد اختلف كليًا عن ذي قبل ، فقسمات وجهه لا يستطيع إخفاء سعادتها أو قل حنينها لابتسامة ، ليخبر سهام بأنه استطاع إقناع صاحب المحل بإقراضه مبلغًا من المال سيُعَجل من زواجهما في القريب العاجل ، كلمات وقعت كبرودة (فريونية) على أسارير سهام التي تكبدت معه عناء الانتظار والصبر طوال تلك السنوات ، لم تتغير نظرتهما لبعض ، لم يتخلل تلك السنوات أدنى ريبة في استكمال درب قد سلكاه سويًا ، لم يعوقهما شيء عن حلمهما المنشود و طريقهما المشروع.

ينزلقا فؤاد و سهام بأنامل متعانقة عبر شوارع وسط البلد المكتظة بالبشر على اختلاف أنماطهم لينزويا خلف سيارة أجرة بيضاء تعبرهما بصورة بطيئة و عن غير هدى ، و لوهلة تدرك تفسير ذلك فالسيارة خاوية من الركاب ، تتهادى إطارات السيارة آملة أن تتوقف ليستقل أحدهم مقعده الخلفي معلنًا بدء رحلة جديدة و بضعة جنيهات تتدفق لحافظة نقود عبدالحميد قائد السيارة ، ذلك الرجل الذي تخطى الستين بقليل ، بملامحه المنحوتة الصلبة و جسده النحيف و بشرته المتداعية للسُمرة و شاربه الكث ذي اللون الثلجي و

شعره الكثيف الذي لا يقل مشيبًا عن شاربه و إن كانت تتوارى بعض الشعرات السوداء لم يعلن الزمن طمسها بعد ، حليق الذقن كجندي بساحة التدريب اليومية يأبى أن يثير غضب قائده ، عبدالحميد يطلق لبصره الحاد المقتضب مهمة البحث يمينًا ويسارًا عن أحد الساعين لاستقلال سيارته أو أحد الباحثين عن مصدر راحة و اتقاء حرارة جو بيوم شارف على المغيب ، حتى التقطت عيناه رجلًا بحُلة رمادية يبدو عليه الثراء و رغد العيش وقد أشار له أن يتوقف بالسيارة جانبًا على مهل و كأنما سيقيم حوارًا معه قد يطول ، و اقترب منه هذا الرجل المهندم و بكل مودة و أدب جم طلب منه أن يقله بصورة عاجلة للإسكندرية بأي مقابل يراه ، على أن ينتظره و يعود به ليلًا فسيارته في توكيل الصيانة الخاصة بها ، و عليه أن يلحق بأحد المواعيد المهمة المتعلقة بعمله كمستورد مواد غذائية من الخارج ، و اتفقا على ما أثلج صدر عبدالحميد و جعله يعجز ان يواري ابتسامته العريضة التي أظهرت بصورة جلية قلبًا طيبًا يشوبه الإيمان بالقضاء و القدر و حسن الظن بالله ، فالأجرة المتفق عليها قد تعادل ما تدره السيارة في أسبوعين ، واستأذن عبدالحميد من الرجل أن يبتاع زجاجة مياه تروي ظمأه و هبط بالفعل بجوار أحد الأكشاك و ابتاع زجاجتين له و للرجل ، و حقا لم يكن هذا هو سبب هبوطه من السيارة ولكن أن يهاتف زوجته أحلام بعيدًا عن مسامع الرجل الأنيق ، ليخبرها بأنه سيكمل اليوم تكاليف عمليتها الجراحية المؤجلة منذ فترة لضيق ذات اليد ، على الرغم من أهمية و ضرورة إجرائها على عجل ، استقل عبدالحميد سيارته متوكلًا على الله شاكرًا نعمته متأنيًا في قيادته ، يدخل عبد الحميد الإسكندرية والليل قد استقر بحسم ، و بعد قليل من الوقت كان قد وصل عبد الحميد لوجهة الرجل ، الذي بادر على الفور بإعطاء عبدالحميد أجرته كاملة مقابل الذهاب و الإياب وطلب منه أن ينتظره ما يقرب من الساعة ليقله للقاهرة مرة أخرى ، ركن عبد الحميد سيارته

أسفل البناية التي صعدها الرجل ، و شرع في الانتظار حتى التقطت عيناه فتاة في الجهة المقابلة ، و هي جهة الكورنيش و البحر ، ظل عبد الحميد محدقًا بها بغير سبب واضح و هي تجلس منفردة على أحد المقاعد ، و ما أثار دهشته قبل أن تُحجب عنه الرؤية أو يلهو بنظره بعيدًا هو انزعاجها وهي تهاتف أحدهم بصورة ملفتة للنظر .

(حياة) الفتاة الإسكندرانية ذات الثانية و العشرين ربيعًا بملامحها العنيدة والتي يعتليها الشموخ و الكبرياء ، و بشرتها البيضاء و وجهها المستدير كهالة قمر انتصف شهره و شعرها الكستنائي الذي تتلصص بين خصلاته نسمات البحر ، و تنورتها و قميصها بألوانهما الدافئة و قد اخترقتهما ذات النسمات البحرية العليلة ، و قد جعلت منهما شراعًا لمركب صغير يصارع من أجل البقاء وسط أعاصير محيط ، حياة و التي أنهت دراستها الجامعية بإحدى الكليات النظرية ولم تلتحق بعد بوظيفة تناسب شهادتها و قد لا تكون مكترثة بذلك ، إن اقتربت منها ستدرك من نبرة صوتها أنها تُعنّف أحدهم و كأنما تؤنبه بعد جرم خطير ، على الجانب الآخر من المحادثة (كريم) شاب قاهري في أواخر العشرينيات بلحية خفيفة و ملامح رياضية رشيقة يُقسم لها بأغلظ الأيمان وهو يقود سيارته بأنه لا يعير ابنة عمه أو غيرها أي انتباه أو إعجاب أو ما شابه ، فحياة بالنسبة له هي الحياة و ما دونها محض أشخاص باغتتهم الدنيا ليكملوا المشهد لهما ، و أن الشهر القادم سيكون حفل عرسهما الذي سيخلد عشقهما لأجيال و أجيال قادمة ، أخبرها أنها أكملت له ما كان ينقصه من طمأنينة و استقرار و تغيرت معها وحدته لمروج يرتع فيها مع من أسكنها بين أضلعه ، كلمات أثلجت صدرها و انفرجت أساريرها ، و تبسمت و لانت وجنتاها و هدأت نبرة صوتها لهمس يعجز الملاصق لها عن

فك طلاسمه ، لتغلق هاتفها بنهر جارف من الأشواق ، و على الجانب الآخر يُلقي عليها كريم وابلًا من القبلات المغمسة بالغزل ، وما أن أغلق الهاتف المحمول حتى باغته رنينه مرة أخرى ، ليجيب لمن على الطرف الآخر على سؤال يبدو و كأنما قد طُرح عليه من قبل و يؤكد له : صباح الغد سأحضر لكَ ما وعدتك من قرض و مبارك مقدمًا يا فؤاد .

إن كان العشق أصبح مهلهلًا عند البعض ، إلا أن طواحين العشق ما زالت عنيدة قوية

لم تُعلن راية الاستسلام بعد.

بلوك الشرابية

لفظ بلوك هو ما يطلق بالعامية المصرية على كل مدخل عمارة صغيرة ، و غالبًا ما يكون ذلك بالمساكن الشعبية متوسطة الحال أو المساكن التابعة لهيئة أو جهة حكومية أو وظيفية معينة أو تابعة لحي معين ، هي مساكن متشابهة مع بعضها البعض بنفس التصميم و نفس الطراز و غالبًا نفس المساحات و عدد الطوابق إلا فيما ندر من اختلافات ، غير معروف أو منتشر ذلك المسمى بالأماكن الريفية أو المناطق الطاعنة في العشوائية ، و بطبيعة الحال غير موجود بالأماكن الراقية ، حيث تتواجد الأبراج و البنايات الشاهقة و ناطحات السحاب .

و لكن هناك شيء ما لا بد من لفت الانتباه له ، تتميز تلك (البلوكات) بتنوع مخيف من البشر (التنوع هو المخيف و ليس البشر حتى و إن كانوا كذلك) ، فهي ليست موحدة بنوعية ما كالريف أو الأماكن العشوائية أو الأماكن الراقية ، تجد بالبلوكات ما لا تجده بغيرها من تنوع بشري هو لا يَنّم و لا يشي بتكاتفٍ أو تكافلٍ ما ، و لكنه يُخبرنا بأن أحيانًا يتوحد المصير البشري حتى مع اختلاف المستوى التعليمي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الأخلاقي أو النمط الديني بنسب متفاوتة ، لأن غالبًا المستوى الاقتصادي و المادي له عامل الحسم في هذا الموضوع .

بأحد (البلوكات) التابعة لبنايات سكنية بحي الشرابية بمحافظة القاهرة تدور أحداث قصتنا التي قد تبدو مألوفة للبعض ممن عاصر مثلها و التي قد تظهر و كأنها مفاجأة من العيار الثقيل للبعض الأخر .

نسماتٌ ليلية صيفية تعبر الأجواء ليصل مداها لبلوك الشرابية ، بلوك يقع على ناصية شارع ، يحده أكثر من محل تجاري أو بالأحرى أكثر من دكان صغير

، يبدو للعيان أنه بموقع استراتيجي ، مدخل ضيق ستكتشف بعد بضع خطوات تَهدُم بعض من درجاته الأولى المؤدية للطابق الأول ، و غالبًا هي تلك الدرجات التي يُطلق لها عنان صوت البعض لضيوفه (حاذر من تلك الدرجة المكسورة) و لكن هنا لا بد من تغيير التحذير لـ (حاذر أن تخدعك الدرجة السليمة) ، يبدو البلوك مكونًا من ثلاثة طوابق ، لكل طابق شقتان ، ألوان خارجية موحدة باللون الأصفر القاتم و الذي نال الدهر منه كثيرًا .

شقة 1 الدور الأول

تقطنها الحاجة فوزية و قد انتقلت إليها من شبرا بعد وفاة زوجها الأسطى عبد الغني ، و هو كان خياطًا لا يُشق له غبار ، ذائع الصيت في حينه بشارع شبرا ، و لكن مع الأسف فقدَّ أولاده سيرته عنوةً و قصدًا أو ربما تغافلوا ذلك في حديثهم مع أقرانهم ، الحق يقال أنهم يدَّعون باطلًا أنه كان مهندسًا للبترول بالبحر الأحمر ، جديرٌ بالذكر أن بعد تراكم الديون على الحاجة فوزية بعد وفاة زوجها تركت شقة شبرا التمليك لتستأجر شقة الشرابية بما يناسب استطاعتها المادية الحالية .

أكبر الأبناء عادل المتزوج ، و قد أوشك أن ينهي العقد الرابع من العمر على ما يبدو ، و يعمل كهربائيًا حرًا بعيدًا عن أيّة وظيفة قد تأسره ، واقع الأمر أنه لم يجد تلك الوظيفة و لكنه دائمًا يتظاهر بذلك ، يقطن بشقة مستأجرة بشارع ليس ببعيد عن والدته و لديه من الأولاد ثلاثة .

يليه في الترتيب سمية تلك الفتاة التي لا يعرف أهل الحي على وجه التحديد إن كانت فتاة أم سيدة ، بنت أم متزوجة ، هي جميلة فارعة الطول ، بيضاء ، لا يُطلق وجهها ابتسامة تخبر الآخرين بعمرها ، تهبط من منزلها صباحًا و تعود مساءً ، لا تتحدث كثيرًا مع أحد ، و لا يعلم أحد عنها شيئًا ، يبدو أنها مربية

أو هادئة الطباع أو لديها ما تخفيه عن الآخرين ، و لكن ما يتفق عليه الجميع أن رؤيتها تسرُ الناظرين .

يليها سلمى فتاة يبدو عليها صغر السن كما يبدو عليها رغد العيش و هو الشيء المبهم و الغريب ، هي ابنة فوزية مثلها كمثل عادل و سمية ، هي تعيش بنفس الشقة و نفس نمط المعيشة و الإمكانات الاقتصادية و المادية و لكنها دائمًا تدَّعي لمن يتعرف عليها أو يتجاذب معها أطراف الحديث بإطار سكنهم بأنها تدرس بالسنة النهائية بإحدى الجامعات الخاصة ذات المصروفات العالية .

أخرهم هو رشاد و قد سُمي كذلك على اسم جده فهو رشاد عبد الغني رشاد ، و هو أصغرهم و قد تجاوز العشرين بقليل ، متسرب من التعليم ، فاشل ، ينمو كزهرة فاسدة وسط بستان لا نعلم إن كان فاسدًا أم لا ، و لكن هو بستان منمق الألوان بغض النظر عن كونه صالحًا أم غير ذلك ، أما (رُشد) هذا كما يحلو لأصدقاء السوء أن يلقبوه فهو منبعًا للفساد ، يتعاطى المخدرات بشراهة بل أصبح يتاجر فيه أيضًا ، فهذا (الرشد) لم يدخر وقتًا أو جهدًا وقتما انتقلوا لمسكنهم الجديد أن يتعرف على أقرانه من الفاسدين ،ففي كل بستان توجد تلك النبتة الفاسدة الطالحة التي تؤرق غيرها من الأزهار ، يتبرأ منه أخوته جميعًا إلا أمه الحاجة فوزية التي تدعو له دائمًا بالهداية .

شقة 2 الدور الأول

شقة الأستاذ محسن جادالله المحاسب بإحدى الشركات الخاصة و المتزوج من ناهد كبيرة ممرضات بأحد المستشفيات الحكومية القريبة منها ، و لديهما أحمد طالب الثانوي المجتهد و منة طالبة المرحلة الإعدادية ، يعلم الجميع أن أحمد و منة طالبان مجتهدان بدراستهما ، و الأمر هكذا بالفعل ، ينالان دائمًا أعلى

درجات و ترتيب و تقييم متقدم ، على خلقٍ عالٍ ، يتمتعان بثقافة و سعة أفق و محبة الآخرين و ثقة و احترام معلميهما .

تبدو أسرة مترابطة متحابة مثالية لمن يفكر أن يحتذي بها، و لكن ليس كل ما تراه عيناك حقيقي ، فخلف كل بابٍ حكاياتٌ و خلف كل جدارٍ أسرارٌ لا يعلمها أحد و هذا في حد ذاته نقطة إضافية لصالح تلك الأسرة ، محسن زوج خلوق محترم ، لا يُدخن و لا يسهر خارج منزله و ليس له أيّة علاقات نسائية ، محسن أب متفانٍ من أجل أحمد و منة ، هذا ما يبدو لمن حوله و لجيرانه و لزملائه بالعمل و لأقاربه ، و لكن هناك ما ينغص سكينة و مثالية هذه الأسرة ، رغم كل ما لمحسن من مزايا و أمور تُحمَد ، إلا أن لديه عيبٌ خطير و هو جمود المشاعر ، مشاعره نحو ناهد مشاعر طيبة محترمة كأخ و ليس كزوج ، لم تكن يومًا مشاعر محسن مشاعر فياضة رومانسية جريئة ، لم يراودها يومًا بكلمات إطراء و غزل و هيام ، لم يداعب خصلات شعرها التي باتت مستكينة منذ أمد ، لديه شحٌ عاطفي لا أحد يعلم إن كان متعمدًا أو غير ذلك ، مشاعره تجاه أبناءه عطاءة لا يبخل عليهما بشيء ، لا يدخر جهدًا من أجل توفير ملذات الحياة لهما قدر المستطاع ، لكنه لم يربت يومًا على كتف أحمد كصديق له و هو قد صار شابًا ، و لم يخرجا سويًا يومًا ليسيرا معًا و يتسامرا بأمرٍ هام أو غير هام ، و لم يحتضن منة ذات مرة ليحتويها مثلما يفعل الجميع مع أبنائهم خصوصًا مع بناتهم ، فكما يقال (البنت حبيبة لأبيها) .

شقة 3 الدور الثاني

شقة سعيد الشاب العشريني الريفي ، أبيض البشرة ، ذو وجه مُنمش ، ممتلئ البنيان و المتزوج حديثًا من بسملة تلك الفتاة البيضاء ذات الشعر الذهبي و العينين الخضراوين باستحياء ، بسملة تمتلك الكثير من الطابع الريفي الأصيل الممتزج بقدر متوسط من التعليم و الإطلاع على مجريات الأمور الحياتية ،

و قد اخترقا حياة جديدة بالقاهرة بعيدًا عن ضيق ذات اليد بقريتهما ، و استأجرا الشقة منذ بضعة شهور بعد زواجهما بقليل ، و على ما يبدو أن تلك الشقة هي ما شهدت بذرة جنينهما ، سعيد كان طاهيًا لا يشق له غبار بإحدى القرى السياحية بدخل مميز و هو ما شجعه على الإقدام على الخطوبة و من ثَمَّ الزواج ، و لكن تدهور الحال الاقتصادي للبلاد جعله يترك عمله قبيل إتمام مراسم الزواج مباشرة ، و للأسف لم يجد غيره و لم يجد ما يناسبه ببلدته ، فاضطر بعد الزواج مباشرة أن يرحل و زوجته للقاهرة و يدفع مدخراته القليلة مقدمًا لشراء (توكتوك) ، التزام الحياة لا يقف أمامه المرء كثيرًا للتفكير ، لا يخلو الوضع أحيانًا من بعض المشاحنات و المشاكسات الزوجية المعتادة ، و لكن هذا لم يقلل يومًا من حبهما لبعض .

شقة 4 الدور الثاني

الشقة المغلقة أو كما يطلق عليها أهل الشارع (الشقة الفاضية) هي شقة الأستاذ محمود المصري مدرس الرياضيات بالمرحلة الثانوية و المُعار لدولة من دول الخليج ، و قد سافر هناك منذ أعوامٍ بعيدة ، و غالبًا لن يعود في القريب العاجل و منذ ذلك الحين و الشقة مغلقة مهملة ، أما عن توقيت و أسباب سفره فحدثَ ذلك بعد واقعة طلاقه مباشرة ، كانت مطلقته كاريمان من النوعية المتسلطة المتعجرفة التي تستطيع أن تقنع من يستمع إليها أنها من نسل بشوات أو ربما من عائلة مالكة هنا أو هناك ، و كانت لا تدخر جهدًا في تحويل حياته لجحيم لا يطاق ، لم يكن محمود ضعيفًا لكنه كان مهذبًا خلوقًا يحافظ على مشاعرها و كرامتها أمام الآخرين ، أما هي فلا ، وُلد محمود و عاش وحيدًا بلا أخوة مما أثر سلبيًا على تكوينه النفسي ، و جعله ذلك شخصية انطوائية ، يدور بذهن من سمع بسيرة كاريمان و لم يرها أنها كانت امرأة فائقة الجمال بيضاء البشرة ممشوقة القوام ذات عينين خضراوين أو

زرقاوين ، تتحدث أكثر من لغة ، واقع الأمر أن كريمة أو كاريمان كما أطلقت على نفسها لم تكن جميلة و لم تكن مثقفة و لم تكن متعلمة من الأساس ، هي فقط كانت مستغلة للفرصة التي أوقعت محمود في براثنها بعد أن أحكمت شباكها حوله و قد كان لها ما أرادت و تزوجته ، و لكن بعد سنوات و بعد تفاقم المشكلات ، قرر محمود السفر للخارج بعد أن طلقها و قد منحه الله فرصة كبرى لحياة جديدة نقية من أيّة شوائب ، كاريمان لم تنجب من محمود ، و هذا في حد ذاته ميزة كبرى له جعلته يطوي تلك الصفحة من حياته سريعًا ، عله يعي الدرس و يتحسس خطواته الزوجية و الأسرية القادمة ، حاولت كاريمان بعد طلاقها و بعد سفر محمود الاستحواذ على الشقة بطريقة أو بأخرى ، و لكنها لم تستطع ، كونها غير حاضنة .

شقة 5 الدور الثالث

شقة الشيخ زيات ، يعمل بالمسجد الكبير ، الشيخ زيات خمسيني العمر ، بالطبع يكسو لحيته الشيب و كذلك شعر رأسه ، يعتبر مرجعًا فقهيًا لأهل الشارع من العوام و البسطاء في كافة الأمور الفقهية و الشرعية و الدينية كعادة أهل الأماكن الفقيرة و المُهمشة في التخلص المستمر من مهمة التفكير الشاقة ، ليلقوا بها من فوق عاتقهم على غيرهم و هم مرتاحو الضمير ، كان الشيخ زيات بطبيعة الحال يعلم و يفقه كل شيء من أمور الدين و الدنيا ، يرى زيات نفسه يتمتع بخفة ظل و حس فكاهي نادر ، يعلم الحديث و الفقه و تفسير القرآن و سيرة الصحابة و غير ذلك من الأمور المرجعية كما أنه خبير بإصلاح ما أفسده الدهر بين المرء و زوجه و بين الجار و جاره و بين الأخ و أخوته ، على الرغم من عدم إتمامه مهمة ما لآخرها أو تبديل وضع بأخر ، و لكن على المرء أن يسعى و ليس عليه إدراك النجاح (كما كان يكرر دائمًا حينما يباغته أحدهم مستنكرًا عدم صلاح الحال) .

لا يعلم أحد من البلوك أو الشارع أو حي الشرابية برمته ما إذا كان الشيخ زيات متزوجًا أم لا ، هو يقطن بشقته وحيدًا بعدما استأجرها منذ سنوات ، أصوله تعود كما يخبرهم لضواحي الجيزة و بداية خط الصعيد .

هناك معلومتان لا بد أن نعرفهما قبل أن نطوي صفحة الشيخ زيات و حكاية شقة 5 ، الأولى أن الشيخ زيات مغرمًا بكل ما له علاقة بنون النسوة أو تاء التأنيث ، و يبادر بكل حماسة و شغف لتلبية المطلوب و المبتغى ، و بالطبع لم يكن ليفعل ذلك مع الخشونة الذكورية .

الثانية هي أن الشيخ زيات حاصل على الشهادة الإعدادية و يعمل خادمًا للمسجد الكبير منذ أعوام بعيدة و جميع من بالشارع و الحي يعلمون ذلك .

شقة 6 الدور الثالث

شقة عم كارم و زوجته أم عبدالله ، زوجان اقتربا من السبعين أو ربما تجاوزا ذلك بقليل ، عم كارم كان محصلًا بهيئة النقل العام و انتقل لمرحلة المعاش منذ عشر سنوات تقريبًا ، واكب ذلك زواج ولده الوحيد عبدالله و سفره رفقة زوجته للعمل بالبحر الأحمر مستقرًا هناك حيث يعمل مهندسًا ، عم كارم هو أقدم ساكني البلوك و هو أيضًا من أقدم ساكني الشارع ، يختفي كثيرًا عن الأنظار هو و زوجته ، يبقيا بالمنزل لأيام و ربما لأسابيع ، لا يخرجا سوى لصرف مبلغ المعاش أول كل شهر متكئين على بعضهما البعض ، و ربما الخروج لمرات قليلة على فترات متباعدة لبعض أخوتها أو أبناء أخوته ، و لكن هل يزورهما أحد ؟ لا .... ليس هناك من يزورهما نهائيًا ، هما لا يعرفان سببًا لذلك رغم كونهما على درجة عالية من الود و الاحترام ، حتى عبدالله و زوجته فزيارتهما محددة بعيد الفطر و عيد الأضحى و ربما يسقط ذلك من حساباتهما بعض السنوات .

ست شقق تجمعها جدران واحدة بمكان واحد ، و لكن كل شخص في حياته يلهو و يعبث و ربما يتألم و يتعثر ، و هناك من يحبو نحو النجاة من المجهول أو المعلوم ، و هناك من تلهو الأفكار بعقله و هناك من ينتظر النهاية و غيره من ينتظر البداية ، ينتظر البداية له أو لغيره ، حيوات متعددة بأمتار محدودة ، كل شخص بسُبات متعمد أو غير ذلك ، ربما كانت الحياة هي المسببة لتلك الألغاز و اللوغاريتمات التي لم يبادر أحدهم يومًا لفك طلاسمها .

ربما كانت الحياة هي سياج السجن الذي فُرض عنوةً علينا جميعًا و ربما كانت هي المُخلص إن أحسنّا قراءة تنبيهاتها و أجراس إنذارها ....

ربما كان الأستاذ محسن هو عم كارم في الغد ، و ربما صار سعيد محمود المصري في القريب العاجل ، أو ربما كان الشيخ زيات ملهمًا لـ (رُشد) أو أحد أخوته بغير قصدٍ و بغير علم .

بلوك الشرابية هو بلوك شبرا أو المنيرة أو حلوان أو عزبة الهجانة أو غيرها من أحياء و مناطق المحروسة ، بلوك الشرابية هو (بلوك الحياة) .

أخر سقوط حُر

من غير المألوف أو المستساغ أن يبدأ يومه و يمارسه كاملًا ثم ينتهي دون سقوطه الحُر المعتاد و المتعارف عليه و الذي أصبح عادة حياتية لا غنى عنها ، يُعتبر ذلك في حد ذاته إن حدث (عدم السقوط الحُر) بمثابة خيبة أمل لخيبة الأمل ذاتها أو قل فضيحة مدوية و انكسار لقوانين الطبيعة الخاصة به والتي ترتع بغير عدالة داخل عالمه المظلم .

سقوطٌ حُر ، تارة من بناية قد انتهى توًا من تشييدها منفردًا ، و سقوط أخر قد يكون من نفس البناية أو العلو ولكن باصطفاقات مُكابرة تلعن كل ما هو عالق بذاكرته الحمقاء و التي طالما أقسم على استئصالها في أقرب فرصة ممكنة ، سقوط من ناطحة سحاب لم يتح له القدر الكثير من الوقت لإحصاء عدد طوابقها أو تمييز ألوانها أو الاستمتاع بملامسة السحاب من فوقها ، سقوط من مرتفعات و لكنها على غير مسمى فهي منخفضة ، مجرد سقوط من عَلٍ ، و بالكاد قد تجعله منتشيًا بحسن تداركه و فطنته .

من المثير أن استعداده الدائم لرحلة السقوط لا ينفي توقف مضخة الدم عن التفاعل و الخفقان في حالة الإخفاق أو....أو عدم الإخفاق ، نعم ربما اختلط عليه الأمر برمته ولا يعي هل الإخفاق يكمن في السقوط أم عدم السقوط ، لم يقدح زناد فكره يومًا ليتربع على عرش الحقيقة فلم تعد الحقيقة تُهامسه و تعاتبه و تأمل منه المزيد من التضحيات المثابرة ، فقد زاده الملل ضجرًا و أرهقته المحاولات حتى أصبح مهلهلًا بلا صخب ، ولم تعُد كذلك حواف و أسوار منصات السقوط تتشبث بطرف بنطاله أو رابطة حذائه حزنًا عليه أو ربما مجرد محاولة لإثنائه عن رأيه ، ما يؤرقه دومًا هو فقدان انسيابية السقوط وما قد ينتج عنها من عطب لمضخة الدم أو خلل بـ (وحدة التحكم

المركزية الموجهة) ، حقًا شتان الفارق بين السقوط الأول والسقوط رقم ألف مثلًا .

(أخر سقوط حُر)

وقد اعتلى طواعية سطح إحدى ناطحات السحاب التي اختارها له القدر أو قد يكون اختارها هو بنفسه مُرغمًا ، ولم يشغل باله إن كان قد اعتلاها من قبل أم لا ، فتلك أمور لا تعلّق بذهن محترفٍ للسقوط ، وثبة رشيقة كانت كفيلة بأن تجعله يرتكز فوق الحافة بعد أن رمق السماء منتشيًا بتحدٍ بالغ و ربما بكبرياء مفرط ، ها قد بدا منتصب القامة ، مشدود الظهر و الرقبة والساقين ، تباعُد المسافة بين الساقين يشي ببطلٍ من أبطال السقوط الحُر ، بطلٌ لا تعوزه الثقة و الإقدام و الجسارة ، أغلق عينيه مختالًا بذاته بعدما شهق بروية و عمق و أطلق العنان لذراعيه معلنًا بدء رحلة السقوط !

ولكن !!!

ما حدث لم يحدث له من قبل ، و هو ذو الباع البعيد في رحلات السقوط الحُر ، القدمان مسمران و كأنما لم يُكتَب لهما الحركة يومًا ما ، الذراعان تنطويان و ترتخيان جانبًا باستحياء ، العينان لا تقوان على العودة لاستباق ما يحدث ، فقد تبدد الاختيال بينما ما زالت عيناه مغلقتين ، الوقت لم يعد كسابق عهده بالنسبة له ، يبدو و أن الزمان و المكان يتعانقان و يعقدان معاهدة صلح و اتفاق بعد زهدٍ و خصامٍ ، أما هو فيُعتصَر بينهما ، هذا هو التشبيه الأقرب للواقع ، رائحةٌ عطرية مميزة تخترق أنفه متخطية وحدة التحكم المركزية الموجهة و معلنة التحدي لمضخة الدم التي طالما مقتها ، رائحةٌ عطرية ربما تُعلن عن نعيمٍ و خلود ، و ربما تُعلن عن راحة و سكينة ، أصوات مميزة مريحة تلج لأذنيه بانسيابية محببة للنفس ، قد تكون تلك

الأصوات ضحكات أو همسات لأطفال أو أناس بالغين ، و إن كان الاحتمال الأول أقرب لليقين بأنهم أطفال بأعمار مختلفة ، دفء و وهج يباغت صدره ، مصدره جسد أنثوي يشعر تضاريسه و منحنياته و كذلك متطلباته ولكن لا يستطيع اعتصاره بكلتا ذراعيه المكلومتين المغمستين في الخدر اللإرادي ، لا يستطيع أن يدشن ملحمة مقدسة يتحاكى بها الآخرون .

كل شيء يجول بأفكاره و وحدة تحكمه المركزية الموجهة و مضخة دمه ، و بعدما غاصت أوصاله و فرائسه في انتشاء مؤقت ، ترتسم على وجهه ابتسامة تملأ كل صدع من تجاعيد وجهه الذي تحول توًا من الجمود للمرونة و من الموت للحياة و من السقوط الحُر لما هو أسمى قدرًا و من الجبر للطواعية ، يلوح في الأفق أنه سيصارع و يكافح ليستحوذ على جسد المرأة و عطر الحياة و صوت الصغار ، ترتخي القامة و الرقبة و الساقين بعد أن تتقلص المسافة بينهما ، لحظات معدودة يمقت فيها السقوط و يتوق لحياة تتهيأ له بعد أن بلغ الحلم الآن فوق تلك الحافة ، بلغ الحياة على أعتاب الموت ، نشدَّ الأمل بعد أن استشعر لذة الوجود أو ربما لذة التواجد ، بغضَ السقوط بعد استساغته طويلًا ، تهيأ ليهبط من فوق حافته الأخيرة ، على أن يُقسم أن تكون حقًا حافته الأخيرة ، و أن يدنو للحياة و التي باتت تجذبه إليها كامرأة تشتهي رجلًا بشدة ، بدأ يُرخي إحدى ساقيه مستعدًا للهبوط من فوق الحافة مع استعادة فتح عينيه ، ولكن ...

ولكن دوي ارتطامه كان أسبق ، مُعلنًا أخر سقوط حُر .

رحلة ديالو

يبدو أن الرحلات و الرسائل الإنسانية مختلفة و متباينة بين شخص و أخر ، و بين مرحلة و أخرى ، ولكن هناك شيء ما يجمع تلك الترهات في بوتقة واحدة و مصير واحد ، حتى إن لم يكن نفس الزمان....

ماذا عن الموت ؟

بماذا يشعر من مات و هو ما زال فوق الأرض لم يُدفن بعد ؟
هل يشعر بمن حوله ؟ هل يسمع من حوله ؟
هل ترافقه الروح في تشييع جثمانه فقط ، أم تستمر معه للقبر ، أم تغادره للأبد ؟

كم هي عصيبة و شاقة على النفس لحظات الفراق والوداع ، والأصعب والأكثر وجعًا هي لحظات تماس الحياة مع الموت أو لحظات الاحتضار ، ظاهر الأمر أن الموت قد يكون النهاية لفرد واحد ولكنه في الواقع يكون نهاية لأشياء كثيرة تتلاشى وتتبدد بأفئدة الكثيرين أو قد يكون فعليًا هو الموت الحقيقي لتلك الأفئدة ، ليس هناك أصعب على النفس البشرية من مواكبة لحظات المَنّية لأحد المقربين زوج ، أخ ، بنت ، أم ، أب.
هل تشعر تلك النفس البشرية بأوجاعهم إن كانت مُقرّبة منهم ؟

هل تعود الروح لأحدهم بسُباتٍ أو بيقظة لتخبره بنصيحةٍ ما أو بتأنيب ضمير عاصرها أو بطلبٍ قد يغير مسارها في الدار البعيدة ؟

ليس هناك مجال للعبث بأطروحات وهمية ميتافيزيقية ، نعلم جميعًا إجابتها ، فلن يُكتوى بالنار سوى من لمسها .

و بالطبع لم يعُد أحدهم من هناك ليتلو علينا متباهيًا أو متأزمًا ما عاصره بالعالم الآخر الخفي (الموت) .

.....

منتصر الشيوي موظف مصلحة الشهر العقاري الذي لم يُنهي بعد عِقده الخامس (ذو البنية القصيرة و الساقين الغير متساويين منذ مولده ، مكتنز البطن ، قمحي البشرة ، له لكنة مستساغة للأذن عند نطقه لحرف السين) والذي وافته المنّية صبيحة يوم من أيام الصيف الملتهبة واستهلت المنطقة التي يقطنها هذا اليوم بكسر النمطية المعتادة فقد بدأ اليوم بأصوات نحيب وعويل يصدر من منزله .

.....

(أجواء نهارية – منزل منتصر / باب الشعرية بالقاهرة)

(الزمان / غير معلوم)

داخل كفن أبيض يفوح منه تلك الرائحة التي ينثرونها على الجثة كي لا تتغير رائحتها أو ربما معالمها ، وجد منتصر نفسه ممدد الجسد لا إرادة له ، لا حركة ، لا نبضات ، لا بصر ، لا سمع ، لا نطق ، لا تفكير ، هناك فقط ما ينهش عقله عما يدور حوله وما يدور بأروقة المكان وما يجول بخاطر الملتفين حوله و قد توشحوا جميعًا بملابس سوداء ، يشعر بمن حوله جيدًا ، و بدأ يدرك الوضع الراهن و فرضياته و احتمالاته ، من الممكن أن يكون كابوسًا من تلك الكوابيس التي اعتاد عليها أو قد يكون واقعًا حقيقيًا مؤلمًا و يكون (منتصر الشيوي) الآن في عداد الموتى .

بدأ يتلاشى بداخله فرضية الكابوس حينما سمع مُرغمًا أصوات عويل سنية و غيرها من النساء ، سارت دموع زوجته سنية أنهارًا وتعالى عويلها ونحيبها لدرجة أن أُغشي عليها ولم تتمكن من استعادة وعيها إلا بمساعدة جاراتها المقربات واللواتي لم تتأخرن عليها فور أول جرعة عويل نفثتها ، هو يعلم ما بوجدانها من ادعاء الحزن والصدمة المبالغ فيها ، هو يعلم أن ما يشغل تفكيرها حاليًا و يؤرقها و ربما يكون سبب عويلها المباشر هو مستحقاته في العمل من مصروفات جنازة و نهاية خدمة و غيرها وصولًا للمعاش ، تقسيم الميراث بينها وبين البنات ، و ربما فكرت في هدنة ما قبل أن تفكر بالارتباط من جديد و ربما يكون هو صلاح ابن خالها المطلق حديثًا ، كذلك يرى أو بالأحرى يشعر ما بداخل تلك النسوة من كراهية لها ، ولكن ما هي سوى احتفالية نمطية لا بد من إقامتها ، مراسم باهتة اعتاد عليها المجتمع المصري وخصوصًا الأحياء الشعبية و الفقيرة .

فوزي الشيوي شقيقه الأصغر والذي أتى مسرعًا من منزله فور سماع الخبر بصحبة زوجته التي أتت شبه مُرغمة ولم تُقدم حتى الحد الأدنى من المجاملات (العويل والنحيب والبكاء) ، وقد أجهش فوزي بالبكاء كمن يدري أن هناك كاميرات مراقبة بالمكان و عليه ادعاء الحزن و تمثيله جيدًا و إلا كانت اللائمة عليه كبيرة ، ثم غادر ليستوفي الأوراق المطلوبة في مثل تلك الأحوال من تصريح دفن و تجهيزات وخلافه ، فوزي الذي لم تكن إطلالته الأخيرة لشقيقه سوى مشاجرة عنيفة منذ ثلاث سنوات أعقبها انقطاع تام للتواصل بينهما ، وسبب المشاجرة كان الخلاف على ميراث والدهما ، أما الآن فقد توفي منتصر الذي لم ينجب سوى ابنتين ، معنى ذلك أن القدر قد أتى لـ فوزي بجزء من ميراث أخيه على طبق من ذهب و ليس فضة .

وها قد حضر زملاء منتصر في المصلحة التي يعمل بها ، منهم من حَزَن بشدة عليه أو ربما حزنه كان على مصاب الموت في حد ذاته فمن مات إنسانًا قبل أي شيء ، ومنهم من أجاد تمثيل ذلك ، ومنهم لم يكن بالعسير على أي شخص إدراك مدى نشوته لوفاة منتصر .

منتصر بحكم عمله في مصلحة الشهر العقاري استطاع تكوين ثروة ليست باهظة ولكنها تشمل أكثر من عقار سكني وتجاري (منتصر لم يكن سيدنا يوسف ، تلك الجملة كان يتغنى بها دائمًا عند استدعاء روح الدعابة الفجة) .

يستطيع منتصر جيدًا أن يدرك مدى الظلام الذي كساه متوغلًا لداخله ، يشعر بمدى تجمد جسده ، يشعر بسلب إرادته بصورة كبيرة ، وهو شعور لا يستطيع إدراكه أحد قبل أن يخوض (تجربة منتصر) ، التجربة التي لا تكرار لها و لا إعادة ، تمر على الإنسان مرة واحدة ، ولكنها قد تمر على ذات الروح العديد من المرات .
توافد الأقارب وزملاء العمل وبقية الجيران للحاق بالجنازة ، الجميع مستعد لتدشين السطر الأخير في حياة منتصر ، إلا منتصر ذاته لم يكن على أهُبة الاستعداد لذلك .

أطلَ عليَّ هذا الكابوس وأطال ، لعل سنية الآن توقظني أو على الأقل إحدى ابنتي أسماء أو رحمة (منتصر محدثًا ذاته) .

منتصر بكفنه الأبيض ترفعه الأيادي لتضعه داخل النعش الخشبي الذي سيُنقل فيه للدار الآخرة ، تتعالى الصرخات وعبارات النحيب من النساء المتواجدات بصورة تصاعدية مباغتة ، صرخات قادرة أن تحرك بعضًا من شرايين أفئدة الحضور من أماكنها بصورة مؤقتة ، يوضع في السيارة المخصصة لذلك (سيارة تكريم الإنسان) .

شعور منتصر بمن حوله بدأ يتقلص تنازليًا ، بدأ يتناقص رويدًا رويدًا ، بدا و أن الشعور و الإحساس المرافق له من قبل بدأ يُسحب منه تدريجيًا ، وإن استشعر مع ذلك قلة من رافقوه للمقابر ، هل ذهبوا ليتأكدوا أنهم تخلصوا منه نهائيًا و أنه لن يعُد مجددًا أم ليتخذوا منه عظة أم ماذا ، و هناك بالطبع من اكتفى بالكاد بحضور المراسم عند منزله ثم غادر سريعًا . الرحلة تقترب لنهايتها ، بالطبع ليس كابوسًا ، إنها نهاية منتصر الشيوي ، حيث لا عودة من تلك الرحلة .

في استقبالهم عند المقابر (عيد التربي) كعريس ينتظر عروسه المنشودة ، وقد تأججت مشاعره بالفرحة فهو لم يعمل منذ أكثر من شهر ، وإن تظاهر بالطبع بالحزن الشديد على منتصر الشيوي (ابن الغالي ..... كما نعته عند وصول الجثمان) .

القبر أصبح مهيأ تمامًا بعد تجهيزه من قبل عيد التربي ، أصبح مهيأ لاستقبال منتصر .
الشعور لدى منتصر أصبح ضبابيًا تمامًا حينما حملوه بكفنه من داخل النعش الخشبي ليسكنوه مقبرته الأبدية ، نزل معه ثلاثة من المقربين ومعهم التربي لإتمام عملية الدفن ، أسجوه على جانبه الأيمن ، فكوا أربطة الكفن ، منهم من وضع على جبينه القبلة الأخيرة ، ثم خرجوا جميعًا ليهيلوا التراب على القبر ، ما هي إلا بضع دقائق حتى انصرف المشيعون مسرعون ليلحقوا بما يرونه أكثر أهمية من ذلك .
بمجرد غلق القبر على منتصر بدأ يتلاشى لديه أي شعور كان حقيقيًا أو ضبابيًا ، لا شعور تمامًا ، وبدأت الروح تتلاشى وسط صرخات كونية وجودية ، صرخات لا علاقة لها بمنتصر، صرخات لا يسمعها سوى المُخول لهم ذلك ، بدأت المقبرة تعتصره و تطبق على ضلوعه بشدة و عنف و كأنما

وجدت ضالتها في هذا التعيس الذي سيكون حتمًا وجبة شهية لها . مُحيَ تمامًا منتصر من الوجود ، لم يعُد له مكان بهذا العالم ، قد يكون انتقل للأفضل وقد يكون انتقل للأبشع، لا أحد يعلم .

(أجواء نهارية – أحد شوارع مدينة داكار بالسنغال) ..... (الزمان / غير معلوم)

يهبط ديالو من منزله بعدما تشاجر مع زوجته المشاجرة النمطية التي يستهل بها يومه كالمعتاد ، أو ربما تكون هي البدايات الصباحية المفروضة عليه من قبّل تلك البدينة سليطة اللسان ، و التي تتفنن دائمًا في تغيير و تبديل أسباب الشجار ، ربما يعود ذلك لذكاء فطري كسرًا لحدة الملل أو مناورة و مراوغة بدهاء ، كي لا يتمكن ديالو من توقع ما هو قادم من جحيم و كي لا يتمكن من إعداد أساليب دفاعية مناسبة لذلك .

بينما يهندم ديالو ملابسه خارج منزله ، يشهق بتمعن نسمات الحرية النقية ، و بطبيعة الحال أيّة نسمات خارج المنزل الذي يجمعه بها هي نسمات حرية و أمان .

يستقل ديالو سيارته الأجرة فهو يعمل سائقًا على ما يبدو منذ أعوام بعيدة ، يجوب بسيارته شوارع داكار بحثًا عن رزقه و ناشدًا إطالة أمد التنزه و

الاستمتاع بنسيم البعد عن زوجته ، يعرج بسيارته من شارع لآخر و من حي لغيره ، حتى يحدث ما لم يتوقع ، كعادة الأطفال العشوائيين في كل البلدان العشوائية ، يتسابق أحدهم لقذف حجر صغير على الزجاج الخلفي لسيارته كنوع من أنواع العبث و المرح المقزز ، ليقف ديالو ذو البشرة القمحاوية أو ربما أغمق قليلًا ويهبط منها مسرعًا لمعاقبة هذا الصبي الذي لاذ بالفرار بأحد الشوارع الجانبية مُطلقًا صيحات الظافر بطريقة بلهاء ، و بالطبع حالت (بنية ديالو القصيرة و ساقاه الغير متساويين منذ مولده و بطنه المكتنزة) من اللحاق بالصبي ، و لكنه تمكن من إطلاق سيل من اللعنات عليه بصوت جهوري ، ربما ليُهدئ من روع ذاته نسبيًا ، بكلمات و عبارات لا تخلو من لكنة مستساغة للأذن حينما ينطق بحرف الـ s .
(من توهم أنه يعلم ماهية الوجود فقد خسر الكثير من المعرفة)

كراكيب

شتاء ٢٠١٨

أحد شوارع السيدة زينب ، و قد شارف النهار على الرحيل باستحياء بغيامته و ضبابية سمائه التي يعشقها البعض و يهابها البعض الأخر مؤذنًا بقدوم ليل طويل كسائر ليال الشتاء الباردة ، حيث إحدى الفتيات اليافعات ذات السروال الچينز الأزرق الضيق بمرونة و المعطف القصير الأحمر و غطاء رأسها الزهري القصير و المقتضب من كافة الحواف عن قصد ، تعبر على قدميها شارعًا رئيسيًا متخطية أحد الأبراج الحديثة لتجاوره بخطوات رشيقة ثم تنعطف خلفه قليلًا بانسيابية و تلقائية تدل على الاعتيادية القصوى ، لتدلف إلى مدخل بيت مكون من ثلاثة طوابق ، بيت يبدو قديمًا و قد عاصر أجيالًا تلو الأخرى ، تحيطه الأبراج من أكثر من جانب لكنه ظل شامخًا كعجوز يتكأ على عصاه وسط الحارة المصرية القديمة المندثرة الأركان ، عجوز يخشاه الجميع و يوقرونه و يجعلون منه المرجعية و الحَكَم في شئونهم الصغرى قبل الكبرى ، صعدت الفتاة درج السلم للطابق الأول في بضع خطوات ، و أخرجت من جيب سروالها ميدالية بها بضعة مفاتيح و دمية فرو صغيرة ، و تُمهد لمفتاح الشقة سبيله لينزلق بالباب العتيق وفي خلسة من الزمن تنطلق الفتاة للداخل مستلقية على إحدى الأرائك مسدلة جذعها لأسفل ملقية رأسها للخلف بعد أن وضعت ما كان بيدها من أكياس التسوق على المنضدة المجاورة للباب ، ثم تعتدل للأمام قليلًا لتخلع عنها معطفها و كذا غطاء رأسها ثم حذاءها لتلقيه بعيدًا تجاه الباب ، و تُخرج هاتفها الخلوي لُتلقي نظرة خاطفة و تدعه بجوارها بعد ذلك ثم عادت للاسترخاء .

لارا فتاة المرحلة الثانوية التي جاوزت السابعة عشر من عمرها منذ أسبوعين لكنها تبدو كفتاة عشرينية الهيئة و الجسد و الملامح ، ببشرتها البيضاء ذات الحُمرة بطابع الحياء دون مستحضرات تجميل و عينيها الواسعتين العسليتين ، عينان تبتسمان دون انفراجة وجه و تضحكان بلا عناء عند الحاجة لذلك ، و شفاه بلون زهرة قد أينعت صبيحة ذلك اليوم فقط ، و شعر بني حريري طويل كان يمكن إن أسدلته أن يتخطى معطفها بقليل و قد يلامس الأرض إن اضطررت أن تثني ركبتيها لتجلب شيئًا قد سقط ، و جسدٌ حدث ولا حرج فقد أعلن عصيانًا و هجر بلا عودة لمنصة الطفولة و المراهقة ، و توغل بشدة لسماء الأنوثة و قد اعتلى مرتبة لا يضاهيه فيه أحد ، جسد نُحتت معالمه بتأني و حرفية و مهل مُثابر ،لارا التي تمكث مع جدتها مفيدة الصواف بمفرديهما تدرك جيدًا أنها في وضع مسئولية ضمني ألا وهو رعايتها لجدتها ، و واقع الأمر أن كلًا منهما ترعى الأخرى ، فالحاجة مفيدة التي أوشكت على السبعين أو قد تكون تجاوزتها بقليل مازالت تتمتع بصحة جيدة إلا من بعض أعراض النقرس الغير مزمن و الغير خطر صحيًا و تتمتع أيضًا بذاكرة لا تحظى بها مثيلاتها في العمر ، عند رؤيتك لتيتة مفيدة أو موفي كما يحلو للارا أن تنعتها بذلك حسب الحالة المزاجية بينهما ستدرك حقًا أنها جدتها فنفس الملامح و الروح إلا من آثار عقوق الزمن و جبروته .

يقطع استرخاء لارا نداء جدتها مطمئنة على عودتها من الخارج ، ويبدو أنها كانت قد استسلمت لنعاس قليل مكنها منه إدراكها أن جدتها ربما قد تكون في نعاس أيضًا ، تهرول لارا لغرفة جدتها تطبع قبلة طويلة على جبينها بينما تهمّ جدتها للنهوض من الفراش ، و هي تحث حفيدتها أن تجهز لهما قدحين من القهوة التركي و أن تلحقها لغرفة (البدري) هكذا تطلق على الغرفة الأخيرة بذلك الرواق الذي يشمل أيضا ثلاث غرف إحداهما لمفيدة و أخرى

للارا و الثالثة مجهزة لمن يأتي من الضيوف لمبيت كعادة معظم بيوت مصر ، بعد لحظات استغراب انطلقت لارا للمطبخ لتجهز القهوة مندهشة من فتح غرفة البدري الآن ، تلك الغرفة التي تفتح كل سنة أو بضع سنوات لغرض ما و لا يدخلها سوى مفيدة ، فلماذا الآن تصر على أن تدخلها لارا معها .

بخطوات حثيثة متثاقلة اقتربت لارا من الغرفة لتطلب منها جدتها بصوت خافت أن تدخل سريعًا و تغلق الباب من خلفها ، بديهيًا أن المنزل ليس به سواهما فلماذا غلق الباب ! ربما يؤمّن ذلك الخصوصية المزعومة ، تدخل لارا موصدة الباب من خلفها بخفة و صمت كأنها لا تريد أن يشعر بها أحد ، تتلفت يمينًا و يسارًا لترى أشياءً عديدة من كراتين و حقائب بلاستيكية و جلدية على الأرض و سرير صغير و خزانة ملابس صغيرة ، يحدوها جميعًا ظلال المصباح الأصفر المتدلي من سقف الغرفة ، تباغتها جدتها و تتناول منها طاولة القهوة قبل أن يحدث لها مكروه ، و تجذبها لتجلس بجوارها على حافة السرير ، و تخبرها بحميمية أنها امتدادًا لها في الحياة و لها أن تعلم أن تلك الغرفة هي غرفة الذكريات و لذلك أسمتها باسم جدها البدري رحمة الله عليه (زوجها سعيد البدري الذي وافته المنّية أوائل الألفية بعد استيفاء سن التقاعد بشهرين فقط ، و كأنما أنهى ما عليه من التزامات تجاه الحكومة و الحياة عمومًا) ، بسطت مفيدة يدها لحافظة صور قديمة هُلك غلافها كمريض ينازع سكرات الموت بلا فائدة ترجى ، حتى باغتتها لارا قائلة : (كل دي كراكيب ؟) لتسقط الكلمة على مسامع جدتها كمن سكب على رأسها قطع من الثلج بشهر ديسمبر ، لتلتفت لها متجهمة بعتاب و خزي و هي لا تنبس ببنت شفة ، لتدرك لارا مدى جرمها معتذرة من جدتها عن ذلك ، و تستكمل مفيدة ما قد شرعت فيه بعد التقاط بعض الشهيق مستعيدة حماستها للتوغل بحافظة الذكريات التي جعلتها بينهما ، لتُري لارا صور زفافها هي و جدها سعيد و صور أخرى لهما و بعض الأصدقاء في أحد المصايف وقد

كانت مفيدة بلباس بحر يُظهر الكثير و الكثير من مفاتنها (لتشع ملامح لارا احمرارًا قد يكون خجلًا و قد يكون اندهاشًا) و غيرها من الصور بمتنزهات و مناسبات شتى ، بعض الصور أبيض و أسود والآخر ألوان ، ثم تُريها صور لصغيريها حينئذٍ (أشرف والد لارا و رشا عمتها) وأعمارهما لم تكن تتجاوز العاشرة وقتها ، رغم أن أشرف يكبر رشا بعامين إلا أنهما يبدوان كالتوأم ، ثم صور زفاف أشرف و أمنية (والدا لارا) قبل أن يغادرا لإحدى الدول الخليجية بعد ذلك بخمس سنوات ، و قد تركا لارا مع جدتها طوال تلك الأعوام بمفرديهما سوى من الزيارة السنوية ، و ها قد حان أوان العودة هذا العام كما أخبراها العام الماضي ليستقرا بأرض الوطن ، و صور زفاف رشا و أحمد (عمتها و زوجها) واللذان استقر بهما الحال بإحدى المدن السياحية بمصر و لكن حالهما كحال أشرف و زوجته من الزيارة ، و تُريها أيضًا صورتها و هي طفلة و قد حملها والداها و يبدو أنهما عقدا العزم على عدم تكرار مثل تلك الصورة فلم ينجبا بعد ذلك ، و هناك أيضًا صور خالطها جزئيًا أو كليًا الهلاك و طمس المعالم ، و هي تسرد لها هذا جدك و هذا جد والدك و هذه جدتك و هكذا حتى تبدو لارا مشدوهة لعبق تاريخي لم تره ، لكنها ولجت إليه الآن لبضع دقائق أعادوا إليها الإحساس بالزهو الذي طالما فقدته مع اندثار الدفء الأسري و حضن الأبوين و الذي تعمل الجدة جاهدة على تعويضه لها ، ولكن لكلٍ مهمة خلقه الله من أجلها ، تعانق لارا جدتها متمنية لها الصحة و طول الأمد ، تضع مفيدة حافظة الذكريات بتمام موضعها السابق لتفتح إحدى الحقائب الجلدية و تستخرج قطعة من ملابس أطفال أخبرتها أنها لأبيها رغم كونها تبدو لأنثى ولكن كان هذا هو العرف السائد حينذاك منعًا للحسد (لتضحك لارا بشدة و تهيأ خصلات شعرها للخلف لتعيدها لما كانت عليه قبل فستان أبيها) و تلتقط أنامل مفيدة لعبة أطفال صوتية تسمى (شخشيخة) لتخبر لارا أنها أول لعبة قد اشترتها

لطفلها أشرف و قبل أن تلحظ لارا عدم وجود ذكرى لملابس أو ألعاب عمتها كانت قد أخبرتها مفيدة أن الصغير (يتوارث متداولًا) ملابس و ألعاب من سبقه من الأشقاء ليس شُحًا أو ما شابه و لكن فألٌ حسن كي يحيا و يكبر كسابقيه ، بعد ذلك بعض كراسات و كتب دراسية لأشرف و رشا و يبدو جليًا من الكراسات و تصحيحها و درجاتها تفوق أشرف الملحوظ عن رشا ، تضحك مفيدة منبهة لارا أن السرير الذي يجلسان عليه هو أول سرير لوالدها منفردًا ، ثم تبسط بصرها لكرتونة مُحكمة الغلق بعناية لتفتحها و تُري لارا محفظة جلدية أنيقة و ساعة معدن أصيلة و نظارة طبية و بعض المتعلقات الصغيرة ، أدركت لارا أنها تخص جدها ، لحظات من التأمل من مفيدة لمتعلقات زوجها الراحل أعقبتها بتنهيدة و زفرة ألم و كأنما قد فقدته توًا ، تلاحقها نظرات لارا بتمعن كأنها تشاهد رائعة من روائع السينما الرومانسية الحالمة التي بالتأكيد لا تعلم عنها شيئاً و لاحقت جدتها ب (طبطبة) على ذراعها ، تنهض مفيدة متأبطة لارا لخزانة ملابس صغيرة بأحد أركان الغرفة لتفتحها ، يوجد بها حُلة عتيقة تختبئ داخل حافظة كيس بلاستيكية تقيها الأتربة ، و لكن بالتأكيد لن تقها مصاب الزمن ، و فستان أبيض أو يبدو أنه كان أبيضًا في يوم ما في الجهة الأخرى المقابلة من نفس الحافظة البلاستيكية ، هناك أيضًا بعض الملابس الأخرى تفوح منها رائحة الأمس البعيد تتوارى بداخل أكياس و تبدو العلاقة معنفة باغضة من كلا الطرفين ، فالملابس تنشد الانطلاق ولكن تقيدها الأكياس ، و الأكياس زُكمت برائحة الماضي بلا فائدة أو نفع يرجى ، فتأمل مواكبة الجديد من الأحداث ، بأرضية الخزانة يوجد حقيبة يد نسائية سوداء بحالة جيدة رغم طرازها القديم جدًا و يبدو أن مفيدة احتفظت بها دون استعمال نهائي عن عمد لأنها كما أخبرت لارا أول هدية من البدري لها ، هنا تذكرت لارا الدمية الفرو بحلقة مفاتيحها ذات اللون المنشق بدرجة فاتحة من الأحمر ، و للعلم تستطيع

البنات أن تحدد منه عشرات الألوان في ثقة و حسم ، و كانت الدمية هدية من زميلها بالمدرسة في المرحلة الإعدادية ولا تعلم لماذا أهداها تلك الدمية و لماذا قبلتها فهو مجرد زميل دراسة ولا تعلم عنه شيئًا منذ انتهاء المرحلة ، ولكن لأن الشيء بالشيء يذكر فهي تذكرته ، يبدو جليًا أن مفيدة تقريبًا أفرغت كل ما في جعبتها من أسانيد و طرح الذكريات حتى باغتهما رنين الهاتف الخلوي الملقى على الأريكة بالخارج ، وهي النغمة المخصصة لوالديها فاستأذنت جدتها و انطلقت بالرواق تعدو كمن يسابق الزمن و المكان و الأشخاص لتلحق بزمن ولى أو بأرض بعدت أو بشخص قد انقضت سيرته منذ آلاف السنين ، تلتقط هاتفها لتجد أكثر من عشر رنات تسبق تلك ، تجيب مسرعة ليهاتفها أبيها من الجانب الآخر معلنًا إياها أن هناك خبر ليس بالسار لها فقد يضطر هو ووالدتها لعدم المجيء لمصر في هذا الصيف ، على أن تؤجل العودة النهائية والاستقرار للعام القادم ، لحظات صمت يتخللها دقات قلب متواترة للارا مصحوبة باحمرار وجه ينّم عن غضب و خيبة أمل ، يعقب ذلك سؤال أشرف للارا عن سر تأخرها في الرد و عن صحة والدته (جدتها) لتجيبه بجملة مقتضبة تنكسر أحرفها على لسانها و كأنما لا تريد مغادرة فمها : هي بخير و لكنها الآن في غرفة (الكراكيب).

العرض الأخير

دلف لغرفته الصغيرة مسرعًا بغية الاستعداد لعرضه الذي أوشك على البدء ، جلس يتثاءب و يحك جفنيه بإعياء و تكاسُل قبل أن يشرع بوضع مساحيقه و ألوانه الخاصة على وجهه ، و هو ما اعتاد أن يصنعه بنفسه لنفسه يوميًا ، غرفته التي لا تتخطى مساحتها متر و نصف من كل جانب أو ما يزيد قليلًا ، تكسوها المرايا من كل اتجاه ، و إن كان بعضها قد اعتلاه الشروخ و كاد البعض الآخر أن يُهشم نظرًا لكثرة التحديق به من قبل المهرج بدران ، لم يعتد أن ينظر للمرآة قبل أن يبدأ بوضع مساحيقه ، هو لا يريد لا إراديًا أن يرى بدر الرجل الذي تكالبت عليه الدنيا و نهشته مخالبها و طرحته قهرًا ، يتوارى دائمًا خلف ابتسامات بدران و دعاباته مع الجمهور ، بل يتسع أفقه رحبًا لسخريتهم و استهزائهم أحيانًا أو ربما لبعض السباب و اللعنات من الصغار و المراهقين .

طفق بدر بوضع مساحيق و ألوان بدران ، منتحيًا بذاكرته عن عزيزة التي اغتالت أحلامه بعدما باغتته بالسخرية لطلبه الزواج منها ، بل و جعلت منه مادة دسمة للسخرية و التهكم بذلك الحي الشعبي الذي يقطناه ، ذلك الحي الذي لا يعلم وظيفة بدر الحقيقية ، و قد بدا لهم مهرجًا لمجرد إقدامه على طلب الزواج من عزيزة ابنة حسين الخضري تاجر الأخشاب ، و هو ذلك الموظف الفقير كما يعلمون ، بدا لهم مهرجًا لمجرد إقدامه على طلب الزواج من عزيزة الفاتنة الحسناء صاحبة الجسد الملتوي الممتلئ قليلا و التي تشعل الحارة توهجًا ذهابًا و إيابًا و يتكالب على خطبتها العديد من الرجال الأثرياء أو على الأقل أشباه الأثرياء ، و هو ذلك البدر البدين القصير ذو الملامح البريئة و لكن بلا وسامة أو جاذبية لإحداهن .

بدأ يتوارى بذاكرته عن والدته التي توفيت في طفولته و لم يُدَثر بعناقها ، و لم يَسري دفء و حنان الأم بأوصاله جيدًا ، و يتوارى قهرًا عن ملامح زوجة أبيه القاسية المعنفة له دائمًا ، و يتوارى خجلًا عن تعليمه الذي لم يكمله بعد وفاة والده و استنكار زوجة أبيه و أخوته منها له .

بالكاد أنهى بدر تجهيزاته المعتادة لبدران ، و التي غالبًا ما أن يفرغ منها حتى يتلاشى بدر من الوجود و الذاكرة و الملامح و المرآة ، و لكن هذا لم يحدث ، مساحيق و ألوان بدران مكتملة على وجهه و لكن ما زال يفزع كبدر كونه وحيدًا بلا أب أو أم أو أخوة ، يفزع كونه مهمشًا لا عائلة له ، ما زال يحترز التدابير بعقله في الخروج و الدخول للحارة شاقًا و مخترقًا لأبجديات الزمان و المكان كي لا يراه أحدهم فيتندر عليه أو يُلقيه بعبارات سخرية و تهكم أو حتى استعطاف .

لم ينجح معه الأمر هذا اليوم و ربما لأول مرة منذ سنوات بعيدة ، ظهر بدران و لم يتوارى بدر ، وُلدَ بدران و لم يَمُت بدر ، استُنسخَ بدران و لم يندثر بدر ، لن ينجح معه العرض إن لم تُحَل تلك المعضلة ، لن يفلت من الفشل إن لم يدحض بدر ، التف حول نفسه بمقعده الذي ما زال يتمتع بحس الدوران من الثبات ، استل جرأته و حاول مباغتة مرآة تلو الأخرى ، لعل واحدة تستطيع اجتذاب بدر لها دون رجعة ، على الأقل حتى نهاية العرض أو نهاية العمر إن أرادت و سيكون ذلك أمرًا محمودًا لها ، و لكن دون جدوى ، يبدو أن صراع البقاء سيحتدم بين بدر و بدران ، بين الضعيف و المستضعف ، المقهور و المستسلم ، لا بد لأحدهما أن ينتصر ، لا بد لأحدهما من قهر الآخر .

أشعل بدر لفافتين من التبغ ، واحدة له و الأخرى لبدران بالمرآة ، يشهق تبغها بروية و وهن و ينفث دخانها برضوخ تام تارة بيده و تارة أخرى بيده المغايرة بالمرآة.

بدر : أنت مندس بين أوصالي بلا نفع أو فائدة أو رجاء ، لا طائل من وجودك سوى الإعياء و الوهن .

بدران : أنت من أردت لنفسك الإعياء و الوهن ، أنت من أوصدت بوجهك أبواب التغيير و التبديل والمواجهة ، لا طائل من ورائك أنت ، لقد أردت لي أن أكون مثلك ، أن أكون مسخًا بلا إرادة ، و لكن لن يحدث .

بدر : كلانا نفس الضعيف المقهور مسلوب الإرادة ، كيف لك أن تتعالى عليّ ، أنا من صنعتك و أعلم كيف تكون ، هل لك أن ترُد إرادتي و تمنعها ، هل لك أن تصدح بما لا أريد ؟

بدران : يُخيلُ لكَ الأمر هكذا ، لكن لكَ أن تعلم أنك الضعيف المسخ وحدك ، يبصق الآخرون على وجه بدر (بدر الحقيقي المعلوم البدين الوحيد القبيح) ، و لكن حينما يبصق عليّ أحدهم ، فهو يفعلها على وجه المهرج بدران (الغير حقيقي ، المتوارى خلف مساحيق و ألوان مصطنعة) ، لا يرى أحدهم لون بشرتي و قد اشتاط احمرارا فهو كذلك بالفعل من قبل ، لم يرَ أحدهم رجفة ملامحي حين أُنعت بأحقر الأوصاف و كأنني مسخ ولدتُ هكذا ، فملامحي لم تعد ترتجف بعد من كثرة اللعنات التي طالتني ، أنت القبيح و لست أنا ، أنت الضعيف و أنا المستضعف بإرادتي ، أنت المقهور و أنا المستسلم كوني هكذا.

بدر : أنا من صنعتك و أنا من يستطيع أن يفضح أمرك ، أنا من يقدر على أن ينحيك للعدم كما كنت .

بدران : لن تستطع ، أتعلم لماذا ؟ لأنك ضعيف ، أنا من أجعلك تفر من لطم الخدود على هجر و زجر تلك العزيزة لك و أنا من تُلقي إليه عبراتك من قسوة الزمن و وحدتها ، أنا من أبقيك حتى الآن على قيد الحياة .

يُقرع باب الغرفة بشدة و عنفوان لا يخلو من بعض عبارات السب له و لذويه جميعًا ، من يفعل ذلك يحذره بوابل من الوعيد و التهديد عن تأخره في الصعود لخشبة المسرح ، و لكن بلا جواب من بدران أو بدر ، ربما كان ذلك من أثر أصوات الموسيقى و الرقص و الغناء بالخارج ، كما يبدو و أن المهرج اندمج في تقمص الشخصية للحد الذي أنساه عرضه ، يزيد الطارق من قرع الباب و أيضًا من لعناته و لكن دون جواب أو تفاعل من المهرج ، يقتحم الغرفة محملًا بطاقة توبيخية و ربما تدميرية لمن بالداخل ، و لكن ما رآه جعله مشدوهًا .

المهرج مُلقى على الأرض بجسده البدين بلا حراك ، مُضرجًا في دمائه و التي تنهمر من جروح غائرة بوجهه و أماكن متفرقة من جسده ، الزجاج متناثر بالغرفة ، جميع المرايا مهشمة بصورة كاملة تقريبًا ، آخر ما لفت نظره قبل أن يصيح على الآخرين بقايا لفافة تبغ (واحدة) ملقاة على الأرض و ما زالت مشتعلة .

ربما الآن قد انتهى المهرج من عرضه الأخير.

أدرينالين

شارع عماد الدين 1952

سيارة أجرة يقودها الشاب عبد العظيم ، طويلُ القامة ، قمحي البشرة ، أسود الشعر ، ذو عينين سوداويين ، هو في الواقع شاب كغيره من المصريين في مثل هذا العمر ، ملامحه مألوفة ، ليس هناك ما يميزه عن غيره ، يجوب وسط القاهرة بسيارته بحثًا عن زبون و سعيًا على رزقه ، تدور عيناه يمينًا و يسارًا بين وجوه الناس على الأرصفة ، و محملقًا في غيرهم ممن يعبرون الطريق ، ملتفتًا بين الحين و الأخر لسيارة تمر بجواره أو صبي يصيح بقارعة طريق على بضاعته ، لا جديد في هذا اليوم عن سابقيه ، حتى يحدث ما لم يتوقع .

ينجذب عبد العظيم مشدوهًا لمرآة صالون السيارة بصورة مباغتة ، تلتقط عيناه فتاة جميلة وشاب بحُلة عسكرية وملامح غربية يجلسان بالمقعد الخلفي في حالة من الغرام و الانسجام المتبادل ، يحك عينيه من هول المفاجأة والرعب في ذات الوقت ، يكبح فرامل السيارة بسرعة قبل أن يصدم أحدهم ، ثم يعود ليواصل السير مرة أخرى و يختلس نصف نظرة عين بإطلالة جانبية في المرآة ، نفس الفتاة و الشاب ، من المؤكد هما شبحان ، فهو بكامل قواه العقلية على حد علمه ، و لم يذق طعم الكحوليات أو المخدرات يومًا ما ، لا يقوى على الالتفات ، يحدق بالمرآة مرة أخرى ، الوضع كما هو وإن تبدلت ملامح الشاب لملامح مصرية أصيلة و لكنه ما زال بالحُلة العسكرية ، ما لفت نظره أن الفتاة تبدل حالها بهذا المشهد العبثي فأصبحت وكأنها مُرغمة وغير راضية عن ذلك ، شعر عبد العظيم بالدوار و الإعياء ، القدر لا يمهله أو يمكنه من إيقاف السيارة ،أعصابه الشاردة و وعيه الذي

ضل السبيل لا يُمكناه من التحكم بالسيارة ، السيارة تترنح رغم كونه متشبثًا بمقودها جيدًا ، تصطدم السيارة بالكثير والكثير من الأشياء التى لا يراها حقًا و لكن يشعر بوقع الاصطدام و الذي نال من بعض السيارات والأرصفة و ربما بأناس أبرياء ، السيارة شبه مهشمة ولكنها ما زالت تسير بسرعة تقترب من الصفر وبأصوات ضجيج و صخب تصُم المحيطين .

أحد مستشفيات القاهرة 2011

طبيب شاب طويل يرتدي معطف الأطباء الأبيض المميز ذو الرونق الجذاب ، يجوب أروقة المستشفى بخطى أسرع من المعتاد بحثًا عن شيء ما ، ربما حجرة مريض أو قسم طبي ما يقصده أو غرفة عمليات ، يلتفت يمينًا و يسارًا ، بعض الأبواب موصدة بإحكام و كأنما تم غلقها عن عمد و لا طائل من محاولة فتحها ، و البعض منها تساوى بالجدران بشكل غريب و تلاشى تمامًا بشكل يوحي بعدم وجود غرف أو أبواب بتلك الأماكن نهائيًا من قبل ، الأضواء أصبحت خافتة تارة ومتوهجة تارة أخرى بعشوائية وعن غير هدى ، تتباطئ خطوات الطبيب و تتثاقل ، لا أحد بالممرات أو الأروقة نهائيًا ، لا أطباء أو ممرضات أو حتى مرضى ، الجميع اختفى بصورة بلهاء عبثية ، لا يرى الطبيب أحدًا وإن كان يشعر بوجودهم ، ويبدو وكأنهم يتوارون من شيء ما أو ربما منه هو شخصيًا ، يسمع صوت أنفاسهم المتلاحقة و المتواترة ، يشم رائحة الأدرينالين الخاص بهم و الناتج من خوفهم ، يكاد يخترقه دفء وجودهم المختلط بشهيقهم و زفيرهم المرتعد ، الجدران والأرضيات تزداد لمعانًا وبريقًا يخطف الأبصار عن غير استحسان ، وكلما ازداد لمعانها كلما شرعت تنضح بدماء من جهة ، و تنهمر منها دموع من جهة أخرى ، يرتفع صوت صراخ و عويل محشرج و يبدو أنه يصدر من حناجر تصدحُ منذ عقود بلا جواب أو تلبية من أحد ، لا يعرف مصدر تلك

الصرخات و لا يبدو عليه الاكتراث أن يعرف ، يزداد انهمار الدماء والدموع بشدة كسيول بنوة شتوية تأبى السكينة ، تتعانق تلك السيول المنهمرة و تختلط ممتزجة و متلاحمة ، وتتجمع منزلقة من جميع الجدران والأرضيات وكأن هناك آلة مغناطيسية عملاقة اجتذبتها لنهاية الرواق لتُعلن عن لوحةٍ فنية كبيرة قد رُسمت بعناية فائقة ، أمعن الطبيب الذي صار مرتجفًا النظر إليها (لا ينقصه إفراز هرمون الأدرينالين) ، لم يبخل عليه عقله كثيرًا ليترجم له محتوى الصورة (نفس الفتاة و نفس الشاب بمشهد السيارة الأجرة ، الشاب بالملامح المصرية و الحُلة العسكرية ، ما زاد عما سبق أن الفتاة أصابها الإعياء و الشيخوخة و ما عادت فتاة ، والشاب ما زال بريعان شبابه أو ربما يواري شيخوخته بطريقة ما) ، تعلو صافرات الإنذار معلنة عودة الحياة للمستشفى على حين غرة ، تتوارى عن أعين الطبيب تلك اللوحة الفنية العبثية ، يعود كل شيء لسابق عهده ، تعود حركة الأطباء و الممرضات و المرضى تدب بالممرات و الأروقة بصورة طبيعية .

و الآن تعلو مكبرات الصوت أو الإذاعة الداخلية بالمستشفى تستدعي الطبيب (محمد محمود عبد العظيم) .

قطار

صوت صافرات القطار كفيل بأن يجعله يهرول ممسكًا بتلابيب قلبه متمنيًا أن لا تفوق دقاته صوت تلك الصافرات التحذيرية خوفًا من عدم اللحاق به ، يهدأ روعه قليلًا حين يضع إحدى قدميه بداخله ، فلا شك حينها أن القدم الأخرى ستعي جيدًا أن دورها الحتمي أصبح مكملًا ، يلتقط زفرة نفس منتصرة ، تزوغ عيناه يمينًا ويسارًا ذهابًا و إيابًا كي يجد لجسده المرهق مقعدًا يزيح عنه عناء العرق المتصبب غزارة والأدرينالين المنشق بوقاحة بصورة تدعوه للسؤال ما الفرضية التي كانت ستحدث إن لم يلحق بقطاره ، هل كان سيفقد فرصة ممكنة و ملاذًا آمنًا أو ربما عُمر قد يزيد بضع ساعات أو حضن قد تنطفئ وتيرة شوقه و يقل وهجًا بعدما كان يتهيأ له ، هي أمور قد تكون مستهجنة بعرف اللامبالين،لكنها لا تعدو سوى أن تكون نبضات حتمية بساحة المكترثين ، تستقر أساريره حينما تقتنص عيناه أحد المقاعد الشاغرة من وجهته الخلفية ، أحد المقاعد غير المهترئ وغير المخصص لمزاحمات أشعة الشمس الحارقة وغير المتاخم لقوافل أقفاص الباعة الجائلين ، هي فرصة سانحة لأن يحيا بضع ساعات كأحد أباطرة الروم أو سيد من سادة العرب الأولين أو نجم سينمائي ترقبه الأبصار ، يسرع الخطى وبمخيلته المازوخية و خبراته التعيسة المرهقة الحس خطرٌ داهم يتمثل في إمكانية ظهور مفاجئ لأحدهم ملقيًا بمؤخرته البائسة على هذا المقعد قبله ، و من ثَمَّ يلتفت له و تعلو وجهه اللامبالي ابتسامة خبيثة متثاقلة ينقصها بالتأكيد الحياء ، و لكنه بقدر إيمانه يستعيذ بالله من الخيال المريض والضعف المقيت ويطلق لأردافه مترامية الأطراف عنان التحدي والانطلاق والانصياع مليًا لوخزات قلبه مرهف الأمل ، كسرٌ من الثانية التي لا تنقضي يتبعها مشهد درامي ساخن لشَعر ذهبي طويل كجدائل ذهب خام

غير مشغول يتطاير من المقعد الملاصق لمقعده المنشود ، يُفضي بكارة الترقب والتوجس و كأنما أسدلته تلك الحورية قصدًا و جهرًا لتُخبر من تسّول له نفسه الإقدام و الجسارة بأنه مقعد تم حجزه من قبل ، أردافه تُعلن عصيان و زمهرير ديناميكي مفضّلة و متمنية إصدار قانون جديد للحركة والسرعة وعلاقتهما بحسناء ضلت طريقها لقطار طالما كانت حوريته المفضلة أم ياسر متصدعة الوجه بائعة الترمس اللزج أو مدام مفيدة موظفة السجل المدني تلك السمراء مكتنزة الأشياء ذات الخمسين ربيعًا .

يقترب بشدة وكأنه عدّاء يشق صدره خط النهاية منتشيّا بفوز كبير و نصر عظيم ، تمتد يده لتحتضن بعنفوان مسند الكرسي الذي ما زال يتمتع بملمس اسفنجي مرن بخلاف المعتاد كغيره من مقاعد قطارات الغلابة ، يلتف جزعه ليواجه المقعد الشاغر المنشود ليتأكد من أنه ليس محض خيال وليست خديعة أحكمها له أحدهم ، واقع الأمر أن الخديعة الكبرى هي أن يفقد فرصة مجالسة تلك الحسناء ، تلتقط عيناه بل و حواسه كلها وجه حسناء القطار ، ليقف مشدوهًا يداهمه عطرها النفاذ الذي حرك بداخله الكثير ، و بالطبع لن يكون من السهل بمكان محوه أو طمسه أو إزاحته من القطار لسنوات عديدة ، عطرٌ بالتأكيد قد صُنع خصيصًا لشقراء القطار ليناسب

وجهها المثير النابض بالحيوية والنضرة ،تلك الحسناء بعينيها الواسعتين اللتين تكسوهما لون السماء الصافية ، تحميهما أهداب ذهبية ، كُتب عليه أن يراهما حين أدارت الحسناء نظرها من نافذة القطار لتنظر إليه ، أما أخر

ما رآه و سُحر به فقد كانت شفاهها المنداة باحمرار يسيل له الحنين لقبلات متهافتة متعاقبة وقد يبدو أقصى عقاب دنيوي هو هجرها ، شفاه تحبو متباعدة عن بعضها البعض متهامسة في دلال و انسيابية لتحدثه : (عفوًا فالمقعد محجوز) ثم تعيد الكرّة بالنظر نحو نافذة القطار المطلة على الخُضرة التي تمايلت فرحًا بالوجه الحسن، أما الماء فيكفي ما يتصبب منه عرقًا و هو يمرق بأردافه و ساقيه المهدلتين المحملتين بخيبة أمل بين مقاعد القطار العديدة لعله يجد ما هو شاغرًا وهو حتمًا حلم بعيد المنال ، فالمتاح له حاليًا من أحلام اليقظة أن يجد من أقفاص الباعة الجائلين ما هو قادر على تحمل اتكاءة ظهره حتى نهاية رحلة القطار .

ربما تكون النهاية

أجواء شتوية باردة و ساكنة و محفزة للاستكانة بالمنزل وسط طقوس اعتيادية من مشروبات دافئة أو وجبات ساخنة تسبق أو تواكب مشاهدة أحد الأفلام الأمريكية التي تبشرك بنهاية العالم في غضون بضع دقائق إن لم تنتبه لدلائل و إشارات معينة ، إلا أن ما سبق من معطيات و بديهيات لم يمنع رأفت و نيفين من مغادرة منزلهما الدافئ وسط مدينة القاهرة و تحديدًا منطقة العباسية للتوجه لأحد أطراف مدينة بدر تلبيةً لدعوة نادين زميلة نيفين بالعمل و صديقتها المقربة لحضور حفل عيد ميلادها الثلاثين ، لم يلزم نيفين وقتًا طويلًا للتفكير في قبول الدعوة التي وجهت لها صبيحة اليوم في مقر عملها ، حيث لبت ما دُعت إليه لحظيًا حتى دون الرجوع لمشورة زوجها رأفت ، و الذي بطبيعة الحال لم يتردد في ذلك نزولًا على رغبة زوجته ، و يبدو أنه لا يملك رفاهية الرفض .

ما أن وصلت سيارة رأفت العتيقة ذات الطراز القديم جدًا أطراف مدينة بدر حتى بدأت ترتعد فرائس نيفين من قسوة البرد المغلف بالوحشة من الأجواء الهادئة الساكنة الخالية من وجود بشري أو غير ذلك بالشوارع المحيطة رغم أن الساعة لم تصل بعد للتاسعة ، بدأت نيفين ذات السابعة و الثلاثين ربيعًا تلتفت يمينًا و يسارًا من نوافذ السيارة علها تجد ما يثلج صدرها و يجعلها تدرك و توقن أنها ما زالت على قيد الحياة بنفس البقعة من الكرة الأرضية ، تُهذب خصلات شعرها البني الفاتح و تعيدها لسابق موضعها (موضعها الذي لم تبرحه من الأساس) ، تُلامس أناملها وجهها الطولي قمحي اللون لتطمئن على بقائه كما هو ، تلتقط هاتفها الخلوي لتدير حوارًا مع ابنها و ابنتها بالمنزل لتتأكد من إنهائهما لواجبهما المنزلي ، تُنهي المكالمة و تصيح طربًا بأن هناك شبكة هاتف خلوي بهذا المكان (طبيعة حال أهل المدن المكتظة

بالسكان حين الذهاب لمدن جديدة واسعة هادئة غير نمطية) ، على المقعد المجاور لها لا ينتبه رأفت الذي تخطى الأربعين بقليل لما يحدث من ذعرٍ و قلق و توتر من قبّل زوجته ، فهو يمسك مقود السيارة بيد و اليد الأخر تحمل هاتفه الخلوي عليه خريطة بإحداثيات محدد عليها نقطة الوصول لمنزل نادين ، لم يتبقَ سوى سبع دقائق للوصول ، هذا ما أخبره لنيفين التي اعتلت ملامحها السعادة المشوبة بالحذر،هي تعرف جيدًا من مشاهدتها للأفلام الأمريكية أن أخطر اللحظات رعبًا هي تلك اللحظة التي تسبق النجاة و الخروج من المأزق .

ها قد أشارت الخريطة لنقطة الوصول ، هبطا رأفت و نيفين من السيارة التي كانت على ما تبدو بيضاء منذ عقود بعيدة بعدما أودعها رأفت المَرأَب الخاص بالبناية ، تهندم نيفين ملابسها بتلك الطريقة الأنثوية و هي تبدو ذات قوام أقرب ما يكون للرشاقة بتنورتها السوداء التي تجاوزت أسفل الركبة بقليل و سترة سوداء أيضًا يظهر أسفلها بوضوح قميصًا بتلك الدرجة من الألوان المحيرة و التي تشغل درجة ما من خزانة اللون الأحمر و التي تمتلئ بالعشرات و جميعها عند الرجال هي اللون الأحمر و إن تفتق ذهن أحدهم فقد يضيف عليها كلمة فاتح أو غامق، بينما يبدو رأفت بحُلته الرمادية و قوام غير رشيق تمامًا ، و لكنه محير فأنت لا تستطيع أن تراه بدينًا و أيضًا لا يمكنك أن تنعته بغير ذلك ، فهو كما يحلو للبعض تسمية الأجساد المماثلة (بين البينين) بشرته البيضاء كفيلة بأن تجعلك ترى درجة شحوب ما أو ربما ترقب و توتر كان مكتومًا و محبوسًا طوال الطريق ، أما الآن فقد انفرجت أساريره و بدأ يطلق لذراعيه عنان التحليق بصورة رأسية و أفقية و كذلك فعل بصورة مغايرة قليلًا مع جسده ذو القامة المتوسطة ، حتى بدا له أن الوضع الطبيعي لفقرات جسده بدأ في العودة لما كان عليه قبل صعوده السيارة ، فطفق يهندم

ملابسه و يهذب شعره الذي أوشك ما تبقى منه أن يُعلن الرحيل بلا عودة ، ألقيا نظرة على البناية بعدما أخبرت نيفين صديقتها نادين هاتفيًا بأنهما أسفلها و في سبيلهما للصعود ، و بالطبع لم تنسى نيفين أن تجلب هدية عيد الميلاد المغلفة بمهارة و جمال من السيارة ، لم يكن هناك مصعد ، التهمت سيقانهم الدرج المريح المتسع بصورة مباغتة سريعة حتى وصلا للطابق الثالث ، ليجدا بانتظارهما نادين و زوجها سامر ليرحبا بهما أشد ترحاب و يدعواهما للدخول ، يدلفا رأفت و نيفين لبهو المنزل ، تُقدم نيفين هديتها لنادين التي شكرتها و قبلّتها على وجنتيها بحرارة تلك القبلة الرباعية التي تشي عن مودة بالغة ، و جديرٌ بالذكر أن القبلة الرباعية تختلف كليًا لدى أعراف المصريين عن القبلة الثنائية التي يبدو عليها أنها تحصيل حاصل أو روتينية أكثر منها حميمية .

منزلٌ ليس بالكبير المساحة لكنه هادئ الروح محفز و باعث للسكينة و الحب و الغرام لزوجين ما زالا بالسنة الأولى من زواجهما ، أثاثٌ ينّم عن ذوق رفيع و ذكاء فطري قادر على حسن استخدام و استغلال المساحات و يشي أيضًا بثقافة شرقية ممتزجة بالانفتاح على التراث الغربي ، يتبين ذلك من مكتبة صغيرة بها عشرات الكتب العربية و الأجنبية و يتضح أيضًا من بساطة مطبخ أمريكي متصل ببهو المنزل عبر فتحة جدارية مستديرة ، مما يثير الانتباه تلك الإضاءات الخافتة القادرة على تهدئة أعصاب ثائرة و خفض أدرينالين من كان يصارع ثورًا هائجًا لتوه .

بوجه بشوش أجلستهما نادين على أريكة وثيرة لتستأذنهما أن تجلب لهما مشروبين دافئين لكي تتماسك أوصالهما التي من المؤكد أنها أوشكت على التلاشي و التفكك من البرودة ، لا تعلم نادين أنهما كانا يتعرقان منذ قليل جرّاء

مشاهدتهما أو قل اشتراكهما بذلك الفيلم الوجودي المرعب بعنوان (رحلة المخبول بصحراء المجهول) .

نادين الثلاثينية (اليوم تحديدًا) تبدو كعروس فعلًا بملامحها البيضاء النضرة و وجهها الدائري و شعرها الأسود و عينيها السوداويين الواسعتين و قوامها الأقرب للرشاقة منه للسمنة أو ربما هو قوام متوسط مهيأ بعد إنجاب مرة أو أكثر لأن يكون مُنعم باستدارة و التواء (كيرفي) ، مرتدية سروال خروج جينز و قميص من الصوف الأحمر ذو وبرة طويلة ناعمة .

يرحب سامر بصديقة زوجته و زوجها و يبادرهما الحديث عن أشياء عامة و بديهية من تلك التي تخبرك أنه لا يوجد ما يُقال ، مثل السؤال عن الطريق و صعوبته أو سهولته و هو يلمح الجواب على وجهيهما أو عن الطقس بالخارج و كأنما هو بمعزل عن الكون أو قابع بقبو على بعد عشر طوابق أسفل سطح الأرض ، هي عبارات و جمل استهلالية قد يكون لها الأثر الفعال في تلطيف الأجواء و التعرف على الآخر و فتح مجالات آخرى للحديث بالطبع ستكون غير ذات جدوى أيضًا .

سامر و الذي يبدو عليه في عمر مقارب لزوجته نادين أو أكبر قليلًا بطولٍ فارع و جسدٍ نحيف و بشرة قمحاوية مقاربة في الدرجة لمعظم أقرانه المصريين ، هو المدرس الجامعي بكلية الآداب قسم تاريخ و المثقف على ما يبدو من طريقة حديثه و لباقته و أسلوبه المتزن و ملابسه الكلاسيكية الهادئة علاوة على الكتب بالجوار .

تجلب نادين طاولة من أقداح المشروبات الدافئة ، تقدم لكلٍ مشروبه في يده و تجلس بجوار زوجها الذي يربت على فخذها بهدوء يشي بحب و تفاهم .

نيفين : كل عام وأنتِ بخير و العام المقبل يكون معكما ولي العهد .

يضحك سامر و تشاركه نادين ابتسامة خاطفة و يتبادلا النظرات و كأن هناك ما يودان الحديث عنه أو ربما تفي النظرات بحوار يدور بينهما الآن ليتفقا على ما سيقال ، فنظرات و إيماءات العاشقين لا يدركها سواهم .

نادين : واقع الأمر أنكما أول من يعلم ذلك ، فقد أجريت اختبارًا منذ قليل و كان إيجابيًا .

نيفين (مهللة ضاحكة بعينين مشدوهتين متسعتين عن غير هداية) : هذا حقًا أفضل ما سمعت ، يبدو أن هذا فألُنا الحسن ، نشكر الله على ذلك ، و ليتم حملك على خير حبيبتي ، و لكن عليكِ أن تُبقي ذلك في طي الكتمان حاليًا على الأقل .

رأفت (متجاوزًا رابطة عنقه و قميصه المتهدلين) : مبارك عليكما و ليرزقكما الله بطفل جميل يسعدكما و يجعل من أيامكما محبة دائمة .

نادين (بعد أن أزالت كفيها من على وجهها المتوارى خجلًا) : أنتما فعلا فألٌ حسن لنا و قدومكما كان بمثابة سعادة لنا و تضاعفت السعادة بهذا الخبر الذي كان بحضوركما .

سامر (مبتسمًا) : أشكر لكما حسن المباركة و فرحتكما النابعة من القلب و ليبارك الله لكما في هاني و مريم ، و لتعلما أن هذا هو أول عيد ميلاد لنادين و نحن متزوجان و قد أصرت أن تكونا معنا فهي دائمًا تمدح صديقتها نيفين و

تخبرني أنها بمثابة أختها التي لم ترزق بها فهي البنت الوحيدة لوالديها ، كما أصرت على ألا يحضر أحد آخر من بقية أصدقائها أو أقاربنا أو جيراننا .

رأفت (ضاحكًا قاطبًا حاجبيه بطريقةٍ ساخرة) : و كذلك ما أن تلقت نيفين الدعوة حتى لبتها دون مشورتي (الغير مجدية) و تكبدنا رحلة سفر أعتقد أننا مكثنا بها بضعة قرون ، وهل كان لي أن أرفض ! بالطبع لا .

يحتسي الجميع المشروب الدافئ بوجوه ضاحكة على تهكم و دعابة رأفت ذو الحس الفكاهي .

تنهض نادين داعية إياهم للذهاب نحو تورتة عيد الميلاد على المنضدة المجاورة لكي يطفئ الجميع شمع عيد الميلاد ، تتثاقل الأقدام بخطوات حثيثة و كأنما يريد كل منهم أن يكون هو المدعو الأخير على المنضدة ، فالأخير دائمًا على ما نعتقد هو الأكثر أهمية و الأعلى تريثًا و حكمة ، تلتقط يد نادين الهدية المغلفة باللون الأحمر الصريح الخالٍ من أيّة لوغاريتمات حياتية ، تلك الهدية المقدمة من نيفين كي تراها قبل أن تطفئ الشمع ، تبادر بفتح الهدية بتأهب و توقع و لكن ما أن تطاير غلافها من فوقها حتى اندثرت كل التوقعات ، ما هذا ! كيف ذلك !

الهدية كانت ملابس متعددة من طراز غالٍ و محل شهير تناسب طفلًا حديث الولادة .

نادين (و قد تفاقمت الدهشة على وجهها و كذلك سامر) : كيف عرفتِ ذلك و أنا لم أخبرك بشيء ، أنا من الأساس لم أعلم سوى منذ قليل ، كيف لكِ بالخبر !

نيفين (و قد اعتلتها نشوة الظافر العالم ببواطن الأمور) : لقد علمت منكِ أنتِ ، حينما رأيتك منذ يومين و كنتِ تشتكين من ألمٍ بالمعدة و دوار و ما شابه ، هل نسيتِ أنني قد مررت بذلك من قبل .

نادين : يا لكِ من .....

نيفين (مبتسمة) : ذكية ، نحن لسنا بمفردنا و لسنا بنهار العمل (نعم ، يا لي من ذكية) .

رأفت : إنها المرأة يا سيدتي أينما كانت ، لها حدسٌ فريد لا نصل له نحن الرجال .

سامر : لم أكن متأكدًا من صدق و حسن رؤية نادين لكما ، أنتما كالصورة التي رسمتها لكما أمامي تمامًا .

رأفت : ألم أخبرك من قبل يا صديقي بحدس المرأة الفريد ، فلتدع بعد ذلك أي شكوك حول رؤية المرأة للأشياء و لتجعل من نفسك كمتلقي نشرات الأخبار، تسمع و لا تجادل.

ضج البهو الصغير بصوت ضحكات مواكبة لإشعال سامر لثلاث شمعات بمنتصف تلك التورتة التي يغلب عليها الشيكولاتة التي تفضلها نادين و جزء بسيط على الحواف مزين بالكريمة التي يفضلها سامر فهو لايملك الحدس الفريد للمرأة فيكفيه الحواف و التي غالبًا قد تآكلت من علبة التورتة كالعادة.

بدأ سامر باحتضان نادين من علٍ فطوله لا يمكنه بأقل من ذلك ، و على الجهة المقابلة يقفا رأفت و نيفين يستعدان لانطلاق أغنية و أنشودة عيد الميلاد المعتادة ، يبدأ الجميع في التغني بها happy birth day to you , happy

birth day to you , happy birth day to Nany , happy birth day to you

سنة حلوة يا جميل سنة حلوة يا جميل سنة حلوة يا ناني سنة حلوة يا جميل .

و ما أن انتهوا جميعًا من أنشودة عيد الميلاد حتى شرعوا بإطفاء الشمع و بالطبع كان الجميع يدّع الفرصة الأكبر لنادين كي تقوم بواجبها فهي صاحبة عيد الميلاد و هي أميرة اليوم .

ما إن صار الشمع مطفئًا حتى باتت الإضاءات الخافتة ببهو المنزل مثله بنفس اللحظة ، و أصبح المنزل يغط في ظلام دامس،هَمَّ سامر ليتحرك و يعيد مكبس الكهرباء لموضعه (الذي لم يغيره أحد) و لكنها حركة لا إرادية تحدث من الجميع بلا استثناء كما تعلمون ، و قبل أن يتحرك أو ربما قبل أن يرفع ساعده من فوق كتف نادين،يسمع الجميع صوت صرخات مدوية بالخارج ، هي ليست صرخات آدمية و لكنها صرخات كونية و كأنما هناك من بهذا الكون يصيح مذعورًا مستنجدًا على كونٍ آخر و ربما على زمنٍ آخر ، الصيحات و الصرخات لم تكن مؤذية أول الأمر و إن كانت مرعبة حتى صارت بعد ثوانٍ صادمة مؤلمة ، أسقط سامر يده من فوق كتف نادين ، وضع الجميع أيديهم فوق المنضدة التي صارت تترنح من هول الصوت ، سمع الجميع صوت تهشم زجاج عن قرب و عن بعد و من كل مكان ، بدأت صرخات بشرية تبادر باختراق الساحة و قد بدت محشرجة أو مرغمة على ذلك ، أعضاؤهم الداخلية تبدلت مواضعها ، بدأ الجميع يصرخ عن غير هدى ، ترنح الجميع و سقطوا متشبثون بأي شيء ، سقط سامر على جانبه ممسكًا بتلابيب بساط أسفله و كأنما سيكون المنقذ له ، كما يقال الغريق يتعلق بقشة و لكن لم يقل أحدهم أنه يتعلق ببساط فهو ليس ببساط الريح ، يتلو سامر ما تيسر

من القرآن فهو خير ختام للحياة ، أما عن نادين فكانت قد أضرجت تحت المنضدة التي هوت فوقها تتمتم بلا شيء ، ربما كانت أدعية أو ما شابه ، هي لم يدُر بخلدها أن تنادي على سامر أو ربما قد سقط اسمه من ذاكرتها الآن فكيف للمرء أن يتذكر غيره في لحظات النهاية حتى و إن كان غيره هو زوجه ، وثب رأفت عن غير إرادة ليجد نفسه فوق أريكة و قد تعانقا و انزلقا سويًا ، و لكنه أيضًا أخذ يتمتم بما يعرف من الإنجيل و قد التفت سترته حوله و جعلته كفرعون تم تحنيطه منذ آلاف السنين ، و قد صارت نيفين بلا هوية جسدية واضحة حينما دلفت برأسها بين فخذيها و هي جالسة القرفصاء بأحد أركان البهو و ظلت تدعو يسوع أن يحميها من أهوال النهاية حتى لا تتألم و ظلت شفاهها مصلبة على صورته المثبتة على قلادتها و المدلاة على صدرها.

لحظات النهاية للفرد دائمًا ما تكون مرعبة و لم يعُد أحدهم ليخبرنا عما حدث له ، لحظات الموت تعتبر هي اللحظات النقية الوحيدة بحياتنا ، لحظات خالية من أيّة شوائب تعكر صفو صدقها .

لحظات لم يستطع أحد أن يعلم مداها و لن يستطع أحدهم أن يتوقع ما يليها ، تخفت الصرخات البشرية مثلما خفتت الصرخات الكونية قبلها ، يتحسس الجميع موضع جسده من الآخرة ليدرك هل هو من الصالحين المخلدين بالجنة أم من الفاسدين وقود جهنم ، يتدارك كل منهم جسده و أعضاءه و يطمئن على نفسه بالنسبة للوجود المحيط ، الوضع لم يتغير ، الجميع ما زال بمنزل سامر و نادين ، فهل سيكون الحساب بمنزلهما ، ثم سيرحلون جميعًا لمآلهم الأخير ، أم أنها الجنة و عليهم تدبر أمرهم .

يبسط سامر يده لتلمس أنامله إحدى خصلات شعر نادين ، يبسط يده الأخرى ليلتقط هاتفه الخلوي و يضيء مصباحه ليرها و قد أثارها الذعر و بدّل

الرعب لون وجهها للأحمر القرمزي و ما أن رأته حتى صاحت : (سامر) لقد تذكرته بمنتهى اليسر .

و على نفس ضوء المصباح تنهض نيفين متحسسة جسدها و يبدو عليه أنه لم يفقد أحد أعضائه بعد ، تترك نيفين قلادتها و تتجه نحو رأفت بخطوات حثيثة متثاقلة لتزيح عن حضنه تلك الأريكة و تحاول مساعدته .

ينهض الجميع مسرعون لاهثون نحو النافذة علّهم يجدوا ما يبرر ما حدث ، جمعٌ غفير من البشر بالشارع ، من هؤلاء ؟ و من اين أتوا ؟ (لسان حال نيفين و رأفت) ، و على مرمى الأفق إحدى البنايات و قد تساوت بالأرض بعدما انهارت ، وبدأت تتدفق سيارات الإطفاء و الإسعاف و الشرطة و أصوات صخب و ضجيج هنا و هناك ، من الوهلة الأولى يبدو الأمر كأنه زلزال بمقياس عالٍ أو ربما سقوط البناية هو ما فعل ذلك ، و لكن على أي حال و بعد أن تنفسوا الصُعداء ، فقد أدركوا أن النهاية لم تُسَطَر بعد .

سقط عمدًا من التقويم

٣٠ أغسطس ٢٠١٤

صعد ياسر المنسي درج السلم بخطوات سريعة يختزل فيها درجتين أو ثلاث بوثبة واحدة ، مكنه من ذلك عمره الذي لم يتخطَ الخامسة و الثلاثين بعد ، و جسده شبه الرياضي أو على الأقل الغير مهترئ ، ليصل للطابق السادس حيث منزله المتواضع ببنايته المتواضعة بشارعه المتواضع و إن كان يحدوه الدفء ، يدلف إليه بعد عناء يوم عمل شاق يأمل و يشتاق لراحة و سكينة و دفء أسري يسري به و يعيد شحذ همته ليوم تالي لن يقل شقاءً عما سبق ، يلتقط أنفاسه بزفرة نصر على واقع يعمل جاهدًا على تقويضه ، هو على استعداد و تهيئة و توقع أن ترتسم الابتسامة على وجهه حين تقفز إليه تاليا ذات الخامسة و التي ضبطت أذنيها على أزيز مزلاج الباب ، و أن تخالط الطمأنينة ملامحه حين تعانقه هويدا زوجته التي تصغره بعامين ببشرتها الناعمة و ابتسامتها العريضة و عينيها اللامعتين ، و عليه أن يغتنم الساعات المعدودة التي يجب أن يستثمرها جيدًا معهما قبل أن يعتزم الخلود للنوم استعدادًا لمعترك اليوم التالي ، لم يحدث ذلك التوقع الروتيني النمطي اليومي ، ظلام دامس ... تحسس مكبس الكهرباء و قبل أن يضغط عليه أُنيرت الكهرباء ، هويدا و تاليا بملابس زاهية و ضحكات منفرجة و تصفيق حاد مرفق بصيحات مهللة ، يلتفت ياسر إليهما ليرى بالونات و زينة ملونة ببهو منزله الصغير معلقة بشكل منمق و تورتة صغيرة على المنضدة عليها رقم ٣٥ ، نعم هو عيد ميلاده الخامس و الثلاثون ، لم يتذكره سوى الآن ، بضع ساعات ولا أجمل من ذلك ، عناق و ضحكات و لهو منهما لتاليا ، حتى استلقت تاليا مستسلمة لنوم هانئ بفراشها و كذلك ياسر و هويدا و لكن بعد مداعبات زوجية ممتزجة بطعم الحلوى الملتهمة منذ قليل ، نوم هادئ يخلو

من أحلام موجعة أو كوابيس مزعجة ، نوم حريري لا شئ أخر يشوبه أو ينغصه .

تنفرج أسارير ياسر قبل أن تتحرر جفونه و كأنما اشتاق للخروج من عالم السُبات لدنيا هويدا و تاليا ، يستيقظ ياسر و مازال طعم الحلوى مخالطًا للعابه و مذاق المداعبة يغزو أوصاله ، يتحول منزلقًا لجانبه الأيسر ليعانق هويدا ، حركته تثاقلت بشكل غير معتاد ، الفراش خاوٍ إلا منه ، يشعر ببرودة طقس غير مسبوقة ، هويدا غير نائمة بجواره ، يبدو أنها سبقته لتجهيز الفطور اليومي ، التقطت عيناه مرآة خزانة الملابس بدهشة ، قفز ياسر من فراشه مقتربًا بتوجس للمرآة ، اقترب أكثر و أكثر .... خصلات كثيرة بيضاء التهمت رأسه و لحيته أيضًا ! لحيته كانت ملساء بالأمس ، فمتى نبتت ! و قبل أن يقترب كان قد لاحظ أن بطنه صارت ممتلئة قليلًا ، ليست المكتظة باللحم الوفير بترهل منفر ، و لكن ممتلئة عن الأمس ، بسط يده يتحسسها ، كيف هذا ؟ وجهه يبدو مختلفًا عن الأمس ! يبدو الأمر و كأن أحدهم قد قام بتبديله بآخر ! كيف هذا و هو من يفكر بالأمر ، خزانة الملابس ، الفراش ، الغرفة ذاتها مختلفة عن التي أمضى ليلته بها ، ملابسه الداخلية التي يحلو له النوم بها فقط ليست كما كانت ، الوضع أصبح محض هراء .

نعم ...نعم.... لقد تجاوزت تلك المرحلة ، و أدركت منذ فترة التفرقة بين الحلم و الحقيقة ، إنه حلم ، يبدو أنني قد أكثرت من وجبة العشاء أو حلوى عيد الميلاد..... وخز نفسه ، شعر بذلك ، ليس بحلم هو واقع (يحدث نفسه) .

يخرج ياسر من غرفته المغترب فيها لبهو المنزل ، الرواق مختلف و قد صار أطول و أكثر وحشة ، البهو أكثر اتساعًا و المنضدة أكبر ، يقف ياسر متصدعًا من الداخل حتى تخرج فتاة يافعة جميلة من غرفة أخرى ترتدي

ملابس خروج مريحة ، تنطلق نحو ياسر تحتضنه و تقبل وجنتيه و تُلقي عليه تحية الصباح ، و تَعجُلها لا يجعلها تنتظر رد التحية من ياسر ، الفتاة تبدو كتاليا عندما تكبر أو..... يجذب أنظاره شمع تورتة عيد الميلاد برقم ! برقم ٤٩ ! ٤٩ !

يدور ياسر حول نفسه ، المنزل تبدّل ، هو تبدّل ، ينظر للوحة التقويم الورقية و التي صارت إلكترونية اليوم هو ٣١ أغسطس ٢٠٢٨ ، أمر منطقي فالأمس كان ٣٠ أغسطس عيد ميلاده ..... ٢٠٢٨ ! الأمس كان ٢٠١٤ !

كيف هذا !

سقط من التقويم أربعة عشر عامًا .

تخرج هويدا من المطبخ المغاير موضعه عما سبق ، بزي لم يره من قبل ، ابتسامتها طُمست ، بشرتها صارت أكثر خشونة ، عيناها بلا لمعان .

تناول ياسر فطوره صامتًا ، هو يريد أن يسألها ماذا فعلتما بي و ماذا فعلتما بأنفسكما ، و لكنه لا يريد أن يُتهم بالجنون أو العبث ، أنهى ياسر فطوره سريعًا ، ارتدى ملابسه التي يراها لأول مرة ، خرج مسرعًا من المنزل معلنًا

استعداده لهبوط ستة طوابق ، هبط طابق اثنان ثلاثة ، ثلاثة طوابق فقط كانت كفيلة بأن تجعله يهبط للشارع قبل أن يُلقي عليه حارس العقار التحية و يسأله عن سبب عدم استعماله المصعد ، أنفاسه متواترة متلاحقة رغم كون الطوابق ثلاثة فقط ، يبهره الشارع المتسع وارف الأشجار ، يحدثه عقله الآن عن روعة البرج الذي يقطنه ، يشعر بالبرودة الموجهة ، يدور حول نفسه ، يشعر بالغربة ، يصعد مسرعًا لمنزله ، يتفادى سؤال هويدا عن عودته ، يرتمي في فراشه بثيابه التي لم يرها من قبل ، يطلب بإلحاح النوم حتى يذهب لعالم آخر و يستيقظ ليرى من جديد هل هناك ما قد سقط عمدًا من التقويم .

الراية

رايةٌ سوداء لم يُمحى لونها كليًا نتيجة عوامل الزمن و الطقس والشمس و ملوحة البحر، فاحتفظت بلونها نسبيًا بصورة معبرة عن هيبة ترتجف لها القلوب ، الراية تعتلي ساري قديم أوشك صبره على النفاذ و قد غطاه الصدأ الذي بات ينخر بقامته ، رُفعت الراية صبيحة أحد الأيام الشتوية الممطرة معلنة بوضوح عن خطر الاقتراب من البحر أو التفكير بذلك ، تلك الراية التي باتت تختالُ زهوًا و سط الإعلان عن قدوم نوة قوية على شاطئ بحر هائج كشاب في عنفوانه و أمواج عالية كخطايا زمن تتداعى دون رحمة أو شفقة ، و أجواء يشوبها خوف و ترقب يخفقُ ما تحت الضلوع من أجلها .

الراية السوداء تشاكس ضوء الشمس المنهك و المتوارى من الأساس ، فتبقيه خاملًا مستكينًا مستترًا ، و تحجب عن الشاطئ دفءٌ كان من الممكن أن يمد يد العون في تخفيف حدة الخوف و الترقب و توجس المجهول الذي يُهدَل عنوةً على الأجواء.

يخلو الشاطئ بطبيعة الحال من رواده سوى من عبدالخالق جميل ، الرجل الخمسيني ذو البنية المتناسقة رغم تقدمه في السن ، يجلس على كرسيه بسروال بحر قصير لا يكاد يصل لركبتيه الممددتين للأمام على كرسي أخر بحثًا عن راحة منشودة و ارتخاء عضلي مأمول ، تتصارع على سطح هذا السروال الألوان القاتمة مع النارية فتحتار العين أيهما أغلب ،صدره عارٍ و منثور عليه القليل من الشعر الغير مُلاحظ إلا للمحملق عن قرب ، تتعانق أنامله خلفه لتجعل منها مستقرًا لهذا الرأس الذي خالطه الشيب عن استحياء و تردد ، مُسقطًا بجذعه قليلًا في كرسي البحر ، و تحت قبعة الرأس المُسدلة

قليلًا على وجهه قد تُلاحظ أن عينيه قد أغلقت في سكون لا يناسب ما يجول بالشاطئ و البحر و الطقس ، و غَطّ في سكينة لا تلائم سواه ، ولما لا و هو ذلك الشخص الذي لم يرَ البحر إلا في تلك الأجواء العبثية ، فكلما حَطّت قدماه رمال الشاطئ كان ذلك العبث الضارب في الهزل البيئي .

عبد الخالق رجل يبدو أحيانًا للناظرين شاب عشريني يافع ، و أحيانًا شيخ سبعيني فقد شهيته للحياة و تنازل عما تبقى له من عمر و أراد أن يضيعه هباءً ، يَطُلُ من عينيه عزم و بأس و صرامة و تشبث و تفاؤل المتوكل تارة ، و قلة حيلة و وهن و تشاؤم المتواكل تارةً أخرى .

لا وجود لمنقذ الشاطئ ذو الصافرة التحذيرية التقليدية ، فالراية السوداء كفيلةٌ بأن تقوم بدورها الداحض المُعنف لكل متيم مغرم بغسل همومه بمياه البحر كما يروق لهم أن يتحدثوا عن تلك التجربة البديعة أو كما يتصوروا ، أيًا كان الوضع و الحقيقية فالراية السوداء تأبى ذلك الآن .

عبد الخالق لم يكن غاص في النوم بل كان مُسقَط في غياهب اللا وعي ، حتى يشاء القدر أن يسترجعه لنطاق الوعي فجأة ، اعتدلت جلسته قليلًا مرتفعًا بجذعه بحركة مواكبة لثني ركبتيه ، مطلقًا الحرية لأنامله المنعقدة و كفيه المصلبتين بمؤخرة رأسه مزحزحًا القبعة لأعلى بيده قليلًا ليجعل لعينيه مجالًا للرؤية ، لم يكن ذلك نتاج إفاقته من رحلة الإبحار في اللا وعي أو نتاج عزمه مغادرة بؤرة الحدث(المثيرة له هو فقط) ، بل كان نتيجة ما ترامى لمسامعه من اصطفاقات بالموج تختلف كليًا عما اعتاد عليه في مثل تلك النوات من أصوات ، رمى ببصره بعيدًا يمينًا ويسارًا ثم حسره قريبًا فلم يبذل مجهودًا بصريًا أو ذهنيًا مضنيًا ليجد ضالته التي جعلته مشدوهًا بل وارتفع معها إفرازه لهرمون الأدرينالين أو ربما هرمون الوعي بصورة لم يسبق لها مثيل .

بمواجهته الآن في البحر على بعد عدة أمتار من الشاطئ امرأة بلباس البحر ذو القطعة الواحدة يكشف عن ظهر معظمه عارٍ مشدود ينبئ عن صدر لا يقل جمالًا و ساقين عاريين لا يقلان إثارة ، جسدٌ خمري منحوت بعناية و حرفية و كأنما أختير ليكون عنوانًا للأنوثة بل و للجمال بصفة مطلقة ، شعر أسود يتطاير كعصفور انطلق من محبسه بعد طول أمد ، عصفور لا يعوقه أو يقوضه شيء عن التحليق بعيدًا ، شعر إن أُسدل على ظهرها سيواريه عن الناظرين كليًا و يبدو أنه أبى ذلك حياءً و كرمًا ، تهرول المرأة متخطية الأمواج العاتية بمرونة و انسيابية لا يعوزها الدلال ، بقوة و إصرار لا ينقصه الجمال ، بجسدٍ يتمايل تباغته الأمواج فيروضها ، جسدٌ يهرول بخفة نحو مجهول عتّي يخطف معه أنظار من يراه بلا مجهود يذكر ، ولكن من يراه ؟

يلتفت عبد الخالق يمينًا و يسارًا لا يجد سواه ، حتى المُنقذ الذي يأتي كل حين ليطمئن أنه لا أثر لأحدهم على الشاطئ سوى عبد الخالق ، هذا المُنقذ الذي صادَق عبد الخالق و ائتمنه على البحر والرمال لا وجود له هو الآخر ، تسمرت أعين عبد الخالق عليها و عقد العزم على اللحاق بها أو ربما اللحاق بما تبقى له من هرمونات ذكورية تلاطفه من حين لآخر و تناشده المعاونة في استعادة الحياة ، ولكن هيهات فجسده مسمرًا بعناية فائقة و أقدامه كأنما غُرست برمال متحركة إن قاومها ابتلعته ، ليست أقدامه فحسب ، فعيناه لا تقوان على مجاهدة تغيير مسارهما، و عقله لا يستطيع سوى أن يكون مشدوهًا بلا حراك أو تفكير ، عالمٌ يبدو أن عقارب ساعاته قد توقفت إلا عن تلك المرأة .

غفلة من الوقت لم يفصلها سوى صافرة المُنقذ التي تُحيي عبد الخالق كل حين و أخر ليلتفت عبد الخالق له في استغراب و اندهاش ويعيد الكّرة ملتفتًا

للبحر أو بالأحرى لتلك المرأة ولكن دون أثر ، صار الأمر انسيابيًا دون امتعاض من عبد الخالق و كأنه اقتنع أن الوضع برمته شيء من أحلام اليقظة فعاد لما كان عليه من قبل ،أنامل منعقدة بتآلف خلف رأسه ، قبعة مسدلة تُغطي الجبهة ، ركبتان ممددتان و سروال بحر مُحير الألوان ، جذعٌ مُسقَط قليلًا ، هي كذلك الحياة الممهدة كما يأملها عبد الخالق ، دقائق أو ساعات مرت ، هو لا يدري ، حتى أرعبت أذنيه صرخة من تلك الصرخات التي تُعبر عن الانتشاء و السعادة في اللحظات الحميمة ، حكَّت أنامله بعد أن حررها إحدى مناطق جسده متوهمًا أنه حلم يقظة جديد ولكن استمر دوي الصرخة بأذنيه ، قاطبًا حاجبيه، معتدلًا قليلًا ولكن باعتدال أقل عن ذي قبل ، كرر الحَكَّة مرة أخرى و شاح بنظره وتلك المرة لم يُعر اليمين أو اليسار أي انتباه بل أمعن النظر بنفس نقطة التقائه بامرأة حلم اليقظة السابق أو كذلك يظن ، ليجد ما جعله يحكُ جفنيه بصورة قد تدفعه للجنون أو تجعل من عينيه ساحة عظيمة مرصعة بالاحمرار الدموي ، مُلقيًا بقبعته و قد صار مشدوهًا بصورة تشي بخطبٍ جلل ، محدقًا بعينيه اللتين اقتحمهما مشهد امرأة ينضح بها البحر ، امرأة ليست كمن سبقتها ، امرأة يكفي كاحل قدمها إن قُسّمَ جماله عدلًا على نساء الأرض أن يجعلهن ساحرات الحسن بهيات الطلة ، امرأة لفظها البحر ضعفًا و وهنًا عن مجابهتها ، امرأة بمواجهة عبد الخالق لا يفصلها عن الوصول للرمال التي بالتأكيد التهبت قبل أن تخطها قدماها سوى بضعة أمتار ، لباس البحر (القطعتين) لا يخفي من الأنوثة شيء ، صدرٌ مرمري يترنح ذهابًا و إيابًا صعودًا و هبوطًا ، حمالة صدرها عجزت عن تحمُل جبروت سحره فأعلنت الاستسلام التام ، شعرها يُعلن عن غجرية من زمن ولى ولكن بهيئة حريرية أدمنته ساحات التيه ، جسدٌ ينفجر بأنوثة طاغية تُحرك الصخر قبل أن تُحرك (أفئدة) الرجال ، تعدو المرأة غير عابئة بأمواج أو غيرها ، تعدو

كفهد جبلي تتمايل و تتداخل و تتبدل أنسجة جسده بصورة انسيابية مرنة ، ولكن بعنفوان أنثى تشتهي لحظة شبق مواكبة لأنشودة غرام تطرحها عشقًا ، ترمقه تلك المرأة بعينيها الكحيلتين بأهداب تستر نواياها و تكشف عن خديعتها ، وابتسامة تمكنها من اصطياد ليس فقط قلب أو عقل عبد الخالق ولكن تمكنها من الاستيلاء على نخاعه الشوكي إن أرادت .

اكفهرت فرائسه عنوةً و ازدادت ضربات قلبه لتعلو على أصوات الأمواج العاتية ، أفرز الأدرينالين الخاص بتلك اللحظات و كأنما لم يخالطه الحنين من قبل ، يتحرك عبد الخالق وقوفًا ، فتغرس قدماه و تغوص في الرمال كمكيدة قد دُبرت لمقاتل في حرب ضَرُوس بأرض العدو، تبتلعه الرمال بسرعة مباغتة كبيرة حتى تلك الشعرات المنثورة على صدره ، تبتلعه الرمال بعد أن ابتلعت أحلامه و هواجسه و هرموناته المنبعثة بغزارة من أثر الفهد الجبلي العتّي ، لتُغشى عينيه و تُصم أذنيه سوى من صافرة المُنقذ بصورة متقطعة مختلطة بصرخات الحسناء التي تتحول من صرخة انتشاء حميمة لصرخة مكايدة و مفاخرة بنصر عظيم بعد خديعة غَرّاء .

مقابر رزق

هشام السلاموني الشاب العشريني ذو الملامح الريفية و التي تحمل إصرارًا دائمًا على المثابرة لنيل نجاح مبتغى و عزيمة للظفر بما يريد ، هذا الشاب المغترب و الذي التحق توًا للعمل بإحدى الجرائد الأسبوعية بناءً على توصية شفهية من عضو برلماني سابق لرئيس تحرير الجريدة و قد وعده الأخير بإعطاء هشام فرصة ليكون صحفي تحت التدريب و عليه أن يثبت نفسه و أحقيته لشغل تلك الوظيفة ، النائب البرلماني السابق لم يكن سوى صهر ابن خالة هشام ، و بالطبع أراد أن يبدو للآخرين أنه ما زال في موضع سُلطة و مسئولية ، و كان له ما أراد ، هشام هذا الشاب المتحمس لما هو مُقبل عليه ، هو خريج كلية الآداب قسسم إعلام ، أول دفعته على مدار سنوات الدراسة بالكلية ، و لكنه لم يسعَ للعمل أكاديميًا ، و فضَّل على ذلك العمل الصحفي فهذا ما كان ينشده منذ الصغر أو على الأقل منذ بداية دراسته الجامعية .

مضى على التحاق هشام بالجريدة ما يقرب من شهر و ليس هناك جديد يطرأ عليه أو أيّة خبرة يكتسبها ، و لا يبدو في الأفق القريب أي تغيير في ذلك ، جميع الصحفيين و المحررين في الجريدة يسندون إليه أعمالًا بحثية داخلية بأروقة الأرشيف أو السجلات أو ما شابه ، يبدو و كأنهم لا يريدون له اكتساب خبرة حقيقية أو استفادة فعلية ، أو ربما هي تعليمات رئيس التحرير لهم كي يُخرج نفسه من إطار الإحراج أمام النائب البرلماني السابق أو التوصية المزعومة ، و ما هي إلا أسابيع قليلة ليعتذر منه قبل أن يخبره بعدم أحقية هشام بالفرصة التي قد مُنحت له و بأنه غير جدير بتلك الوظيفة .

ربما راقت لهشام الفكرة الأخيرة و كانت هي الأقرب لبرهنة ما يحدث من تجاهل متعمد من الجميع ، و لكن منذ متى و الفرص تأتي له متكاملة أو معززة بالمنطق أو بالقدر المناسب من التوفيق و الحظ ، لم يكن هشام محظوظًا في معظم فترات حياته السابقة بالقدر الكافِ الذي يسمح له أن يخبر الآخرين بأنه ذلك المحظوظ الذي يباغت الحياة قبل أن تباغته و يلتهم منها ما يريد دون أن يريد ، لم يكن سوى ذلك الشخص الطموح الذي يكد و يسعى كثيرًا ليحصل على القليل من الحصاد المتوقع لأقل الساعين من نظرائه ، لكن ذلك لم يثبط من عزيمته قط و لم ينل من إصراره قيد أنملة ، فقد كان على ثقة بأنه سيكون على موعد مع السعادة و النجاح يومًا ما .

دلف هشام بقامته الطويلة و جسده النحيف لداخل قسم السجلات بالجريدة صبيحة أحد الأيام ليجلب لأحدهم سجل ما ، لكنه نسى أو تناسى متعمدًا ما هو قادم من أجله ، و اتخذ له مقعدًا بجوار (العم خضير) رئيس قسم السجلات ، كما يحلو للجميع أن يسمونه ، و بدأ يشكو له حاله و التجاهل المتعمد له من الجميع و ما يخشاه مما سيؤول إليه مصيره كما يتوقع ، لا يعلم هشام لماذا اختار العم خضير ليكون إليه المُشتكى الآن ، و لماذا هذا التوقيت تحديدًا و هو أمامه يوميًا .

نظر إليه العم خضير نظرة خبير مطلع عالم ببواطن الأمور كبيرها و صغيرها و أطلق تنهيدة مُغمسة بابتسامة مقتضبة مصحوبة بتقليص حدقتي العين ، بتوليفة ما لا يصنعها سوى متمكن ، و أردف قائلًا : لم و لن يساعدك أحدهم ، أنت لست الأول و لن تكون الأخير ، و لكَ أن تعلم أن مهنة صحفي الحوادث هي الأصعب صحفيًا على الإطلاق ، ولها أسرارها و دهاليزها و خباياها التي لن يمنحك أحدهم إياها على طبق من فضة ، ولكَ أن تخوض تجربتك بنفسك و أن تصنع معركتك التي لا بد لكَ من الظفر بها أيضًا بنفسك

، وإلا لن تكون صحفيًا و سيكون تواجدك هنا مجرد ذكرى تتباهى بها وسط أقرانك يومًا ما .

هشام : و ماذا يتوجب عليّ أن أفعل .

العم خضير : عليك أن تبادر بما لم يطلب منك ، و أن تثبت لرئيس التحرير أنك لست أقل من أي صحفي لديه ، و أنك محل ثقة و ستكون إضافة لا بأس بها للجريدة ، وحينها سيسعى جاهدًا للاستفادة منك و من مجهوداتك و سيقوم بتعيينك قبل أن تغادر لجريدة أخرى .

هشام : لكنني لا أعرف جيدًا أين تكون البداية ، هناك ما يشبه التشويش على أفكاري .

العم خضير : لديّ معرفة قوية بالعميد تحسين مساعد مدير الأمن لشئون الإعلام ، سأمنحك رقم هاتفه ، و عليك أن تبادر بالذهاب إليه الآن و تخبره أنك قادم إليه من طرفي أنا ، هو يعرفني جيدًا ، و هو سيدلك بكل تأكيد لبداية الطريق بأن تكون صحفيًا مؤثرًا بقسم الحوادث ، فهو بالتأكيد لديه من الحوادث الحصرية ما سيجعلك منتشيًا وسط زملائك و أمام رئيس التحرير ، و لكن عليك أن تستغل الفرصة جيدًا ، فغالبًا لن تتكرر .

هشام : الآن !

العم خضير : نعم الآن ، هل هناك من سيلاحظ عدم تواجدك ! بالطبع لا .

التقط هشام رقم هاتف العميد تحسين و سجله على هاتفه و بادر بالانصراف شاكرًا للعم خضير حسن الصنيع .

توجه هشام لمديرية الأمن التي لا تبعد كثيرًا عن مقر جريدته ، و قد دبت بداخله بادرة تفاؤل و ثقة كان مصدرها العم خضير من جهة و ثقل و حيثية العميد تحسين المتوجه إليه من جهة أخرى ، ضابط بتلك الرتبة من المؤكد أنه يملك الكثير مما لا يقدر عليه غيره من الضباط أو المسئولين .

ما أن دلف هشام لمديرية الأمن حتى سأل عن العميد تحسين ، و قد أرشده أحدهم لمكتبه بالطابق الثالث ، حيث انتظر ما يقرب من نصف الساعة حتى سُمح له بالدخول ، و ما أن دخل هشام حتى وقف العميد تحسين محييًا إياه بصورة تشي بشخص على خلق و محترم علاوة على سيرته الطيبة كما أخبره العم خضير ، أشار له العميد تحسين بالجلوس .

تحسين : أهلًا بك يا أستاذ هشام ، لقد أخبرني خضير هاتفيًا منذ قليل بقدومك و سببه ، و لا أخفيكَ سرًا أن خضير علاوة على كونه صهرًا لي ، فهو أيضًا صديق مقرب منذ الطفولة ، و بناءً عليه فلكَ أن تعتبر طلبك مجابًا (ابتسم تلك الابتسامة التي تصدر من ذوي الشأن و النفوذ) .

هشام : يعجز لساني عن الشكر و العرفان سيادة العميد ، حقيقة الأمر أنني لم أصدق أن العم خضير ذو صلة وطيدة بذوي الأمر و السلطة ، و كنت متأهب عن كثب لأكثر من موقف محرج و لكن .

يباغته تحسين (و يبدو عليه الصيغة العملية ، فليس هناك مجالًا لمضيعة الوقت) : لا يوجد أي إحراج ، تعلم أن لدينا يوميًا العديد من حوادث القتل بشتى الطرق بسلاح ناري أو بسلاح أبيض أو حرقًا ، هناك من قتل صديقه بسبب الخلاف على بضعة جنيهات ، و غيره المدمن الذي قتل والدته تحت تأثير المخدرات طمعًا في سرقة قرطها الذهبي ، و من قتلت زوجها ، و من ذبح جاره بعد مشاجرة بين الأطفال بالشارع ، و غيرها من حوادث القتل

العبثية ، كما أن هناك العديد من حوادث الطرق المختلفة و المتنوعة ، و حالات إعدام تتم على مقربة من هنا بصورة شبه أسبوعية ، و غيرها من حوادث إزهاق النفس التي يشيب لها الولدان .

انفرجت أسارير هشام بعد أن ارتعدت فرائسه و اقشعر بدنه قليلًا بعد سرد العميد تحسين للكم الهائل من الحوادث .

من المؤكد أنني سأكون الصحفي الحصري لمديرية الأمن و سيشملني العميد تحسين بعطفه و كرمه اللا محدود ، و مؤثرًا إياي على غيري من الصحفيين ، ربما يكون ذلك مجاملةً كبرى للعم خضير (محدثًا ذاته ، لكنه لم ينبس ببنت شفة) .

استطرد تحسين قائلًا : بدايتك مع المقابر .

هشام : مقابر !

تحسين (مشعلًا لفافتين من التبغ واحدة له و الأخرى لهشام الذي التقطها شاكرًا) : نعم المقابر التي يدفن بها هؤلاء الذين قد ذكرتهم لكَ سلفًا ، فبعض هؤلاء لا يُستدل على شخصياتهم بعد أن يصبهم تشوه كامل و متعمد من القاتل أو ربما لا يتعرف أحد عليهم حتى بعد تجميع أشلائهم ، أو لا يرغب ذويهم في استلام جثامينهم لسبب أو لآخر ، و هؤلاء يتم دفنهم في مقابر مخصصة لذلك تابعة لوزارة الداخلية .

هشام (محملقًا بالعميد تحسين و متلعثمًا قليلًا) : و ماذا عليّ أن أفعل !

تحسين (تُصدر ملامحه ابتسامة قد تبدو ساخرة و لكنها في الواقع ناتجة عن تلعثم و دهشة هشام) : عليكَ أن تُجري تحقيقًا صحفيًا يكون هو بدايتك في

عالم الحوادث ، تحقيق لم يُقدم عليه غيرك ، جميع الصحفيين و الجرائد تباشر الجريمة من لحظتها الأولى بمسرح الجريمة حتى المعاينة مرورًا بتحقيقات النيابة و الإحالة للقضاء بجلساته المختلفة و درجات التقاضي حتى الحكم ، لم يهتم أحد بمآل الضحية القتيل أو القتيلة النهائي أو مآل من تم إعدامه أو حتى من أتى من حوادث الطرق المختلفة بعد تصويرها و نشر أخبارها ، دائمًا ينتهي الأمر عند هذا الحد لديهم ، و لكن عليكَ أن تكون مختلفًا و متفردًا بما ستفعله ، مثواهم الأخير أو المقابر التي سيُدفنوا أو دُفنوا فيها لابد أن تكون هي هدفك و مبتغاك ، أتوقع لتحقيق كهذا أن يكون له دويٌ هائل و لصاحبه شأن عظيم بعد ذلك ، بالتوفيق لك (وقف مصافحًا إياه و مبتسمًا دون انتظار جواب من هشام ، و قد أعطاه عنوان المقابر و أرسل له إحداثياته الالكترونية على الهاتف ، طالبًا منه أن يُطلعه على التحقيق الذي سيجريه بنهاية اليوم) .

انصرف هشام مسرعًا بصورة لم تنل من دهشته ، استقل سيارته ذات الطراز العتيق و التي ورثها من والده الحاج محمود السلاموني ، السيارة التي أوشكت أن تصبح أثرية ، قام بتفعيل خاصية تقفي الموقع بالهاتف مسترشدًا بإحداثيات المقابر التي أرسلها له العميد تحسين ، لم يكن من العسير عليه أن يعلم بعد ثوانٍ قليلة أن المقابر تقع بأطراف مدينة السادس من أكتوبر ، وضع هشام يده على مقود السيارة و شهق بترو و عمق و بدأ رحلته نحو النهاية (المقابر) التي ربما تكون هي البداية الحقيقية له كصحفي حوادث .

انتصف النهار و أوشك آذان العصر أن يُرفع حينما وصل هشام بالقرب من موقع المقابر ، لم يتبقَ سوى بضع دقائق ليصل للموقع المحدد و الذي اتضح الآن أنه بالطريق الصحراوي و يعتبر أول طريق الفيوم ، لاح بتفكيره أن ما يحدث غالبًا سيكون مزحة خادعة مشتركة من العم خضير و العميد تحسين كي يتندرا بها أمام الآخرين و كي لا يستطيع هشام أن يصمد أمام جبروت

رئيس التحرير المستهزئ به من البداية ، و لكن اندثرت تلك الأفكار و الخزعبلات حينما التقطت عيناه لافتة كبيرة على جانب الطريق تعلن عن (مقابر وزارة الداخلية) ، اعتذر هشام للعم خضير و للعميد تحسين بصوتٍ مسموع و توجه بحثًا عن مدخل المقابر التي تبدو على مساحة ليست بالقليلة و المحاطة بسور عالٍ ، التف حول السور عدة مرات بحثًا عن المدخل الذي لا أثر له ، توقف فجأة حينما وجد بوابة حديدية كبيرة و كأنما نقلها أحدهم الآن فقط ، فهو لم يرها من قبل ، من أين أتت ! يبدو أنه تأثير المشوار البعيد و المباغت دون تمهيد أو استعداد مسبق ، رَكَن هشام سيارته العتيقة بجوار البوابة و قد بدا عليها شدة حرارة يوليو ، هبط منها مشعلًا لفافة تبغ و محملقًا بما حوله من فراغ تام ، لا أثر لأي شخص أو سيارة ، و كأنما الحياة قد تلاشت من هذا المكان نهائيًا ، الصحراء محيطة بالمكان من كل جانب ، لا وجود لمقابر أخرى غير تلك ، صاح هشام على أحدهم الذي لا يراه بعدما اقترب من البوابة ، بالتأكيد هناك حارس للمقابر أو تربي أو ما شابه ، لا مُجيب ، لاحظ وجود سلسلة حديدية مفتوحة على البوابة ، فما كان منه إلا أن فتح البوابة التي أصدرت صوت أزيز قوي أربكه لوهلة ، لكنه صار منشغلًا بأن يجد حارس المقابر كي ينهي عمله سريعًا و يعود من حيث أتي قبل أن يلتهم الليل بقايا النهار ، دلف هشام من البوابة و ألقى بنظره بعيدًا و قريبًا ، يمينًا و يسارًا ، عله يجد أحدهم ، لكن لا أثر لأحد ، سار بخطى حثيثة لا يعوزها الترقب و القلق ، مكان كهذا لا بد له من حارس أو تربي ، و إن كان لم يسأل العميد تحسين و لكنه أمر بديهي ، تثاقلت خطواته التي بدأ الآن يجرها مستميلًا ، صراع قائم بين إرادته و عقله و جسده ، هناك ما يلح عليه بعقله بالانصراف من المكان أو حتى الاعتذار عن تلك الوظيفة غير مأسوفٍ عليها ، و هناك ما يدفعه بإرادة و عزيمة أن يتحدى الصعاب من أجل هدفه ،

لكن يبدو أن ساقيه قد أصابها الخدر بصفة مؤقتة و نسبية ، و هو يتناسى ذلك أو يقنع عقله بخلاف ما يشعر .

تتطاير بعض أوراق الشجر الملقاة على الأرض بصورة تلقائية مصدرة حفيفًا لا يشي به عدم تواجد أية أشجار من الأساس أو عدم أثر لريح أو هواء ، فالجو علاوة على أنه مقبض فهو حار و جاف برطوبة خانقة ، فكيف للأوراق أن تتطاير و كيف لها أن تواجدت من الأساس !

تجتمع عدة أوراق قد أصابها الجفاف و تغيير اللون من الأخضر للبني الغامق باتجاه مقبرة ما ، و أصبحت تلك الأوراق مستندة لجدار المقبرة الخارجي أو كأنما هذا الجدار هو ما منع الريح عن استكمال رحلته معها ، يقترب هشام مستغربًا مشدوهًا لما رآه من تكدس الأوراق فوق بعضها البعض بشكلٍ دفتري و كأن شخص ما شرع بجمعها و اقتنائها لغرض أو لآخر ، و لكن بطريقة بهلوانية غريبة ، اقترب هشام أكثر ثم هبط على ركبتيه لالتقاط بعضًا من تلك الأوراق الغريبة ليدرك ماهيتها ، لا يعوزه التوتر و القلق و ربما الخوف مما هو فيه ، حتى ....

حتى شعر هشام بوضعية يد تربت على كتفه ، دبَّ الرعب بفرائسه و أوصاله و تعرَّق بشدة لم تحدث من قبل ، و صارت دقات قلبه مصدرًا مزعجًا للأموات من حوله ، و قبل أن يلتقط أو يلمس أي ورقة من الأوراق المنشودة ، حاول النهوض أو الالتفات لما خلفه ، و لكن هناك ما يجعل جسده بخدرٍ عظيم ، بضع ثوانٍ كانت كفيلة بأن يتمالك نفسه ، في نفس الوقت الذي تحدث من خلفه قائلًا : من أنت ؟ و ماذا تفعل هنا ؟

هشام (ينهض ملتفتًا له و متنفسًا الصُعداء قليلًا بعدما أدرك أن الصوت لبشري مثله) : أنا هشام السلاموني الصحفي بقسم الحوادث بإحدى الجرائد .

الرجل (ببشرة سمراء و قامة متوسطة ، مرتديًا جلبابًا رماديًا) : و ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

هشام : جئت من أجل تحقيق صحفي بإذن و طلب من العميد تحسين مساعد مدير الأمن ، و لكن من أنت ؟ و أين كنت منذ قليل ؟

الرجل : أنا رزق الحارس و التربي بتلك المقابر ، و قد كنت بنعاس لمدة ساعة تقريبًا بغرفتي التي تراها أمامك .

هشام (متوجهًا ببصره للجهة التي أشار لها رزق بمواجهة البوابة ، و كأن الغرفة كانت مخفية من قبل و قد ظهرت الآن فقط لهشام) : اعذر لي اقتحام المكان ، و لكنني وجدت البوابة مفتوحة و لم ألحظ وجود الغرفة نهائيًا .

رزق : أهلًا بك أستاذ هشام ، كيف لي بمساعدتك ؟

هشام (مشعلًا لفافة تبغ) : كما أخبرتك سلفًا فأنا أريد أن أكتب تحقيقًا عن مقابر وزارة الداخلية التي تشمل العديد من الحكايات و الغرائب و الجرائم ، و أكون شاكرًا لو أخبرتني ببعضها (يقدم لرزق لفافة تبغ لكن الأخير يرفضها بشدة مبالغ فيها) .

رزق : لقد فهمت الآن ، تريد تدوين الأخبار المثيرة لتصبح صحفيًا مشهورًا ، لقد جئت للرجل الصحيح ، أنا على دراية كاملة بجميع الحالات هنا ، هوايتي المفضلة الإطلاع على محاضر الدفن التي ترد مع الأمين توفيق بخصوص كل حالة ، و عمومًا دعنا نبدأ بالمقبرة التي خلفك ، مقبرة الحاوي .

هشام (ملتفتًا للخلف و قد تلاشت أوراق الشجر الجافة) : من هو الحاوي ؟ و قد بدأ هشام في تشغيل جهاز المسجل على هاتفه المحمول .

رزق : حاوي بالسيرك ، و اسمه أمجد على ما أذكر ذلك من محضر دفنه ، و قد كان حاويًا على درجة عالية من المهارة و الكفاءة بالسيرك ، لكنه توفي إثر حادث غريب ، كانت هناك لعبة فحواها أن يُسقط نفسه مقيدًا بحوض ماء كبير لفترة زمنية معينة ثم يقوم المعاونون بتفريغ الحوض فلا يجدونه ، يبحثون في حوض أخر فارغ بالجوار فيجدونه ، و لكن ما حدث أنهم وجدوه بالحوض بعد تفريغه و لكن ميت ، و يبدو أن خدعته لم تكتمل و هناك مزلاج قد عُلق و لم يستطع فتحه للنزوح إلى الحوض الآخر من سرداب أسفل المسرح ، و كانت نهاية أمجد .

هشام : و لماذا لم يُدفن مع أهله ؟

رزق : لم يُستدل له على أهل ، و لم يعرف زملاؤه أي أقارب له ، و يبدو أنه (مقطوع من شجرة) كما يقولون .

هشام : هذه قصة مؤثرة ، اعتقد أنها سيكون لها أثرٌ مدوي .

رزق : نحن لم نبدأ بعد يا أستاذ هشام ، هذه أقل القصص إثارة في مقابر رزق .

هشام : مقابر رزق !

رزق : نعم ، تُعرف هذه المقابر في الداخلية و بين المقابر المحيطة باسم مقابر رزق .

هشام : مقابر محيطة ! لم ألحظ أيّة مقابر أثناء قدومي إلى هنا .

رزق (ضاحكًا كشخص يعلم بواطن الأمور) : لا ، هناك مقابر محيطة ، ليست قريبة و لكنها تُحيط بنا عن بعد ، و يبدو أن أثر حرارة الطقس جعلك لم تلحظ ذلك .

هشام : ليكن ذلك ، و ماذا عن هذه المقبرة ؟ (يشير لمقبرة مجاورة لمقبرة أمجد) .

رزق : هذه مقبرة أشلاء .

هشام : أشلاء !

رزق : نعم أشلاء جثث مما يتم تجميعها من حوادث الطرق و الحرائق و ما شابه ، و تكون غير متضحة المعالم أو متفحمة و غير مُكونة لجسد كامل ، فتُسمى أشلاء ، نقوم بتجميعها بطريقة معينة بهذه المقبرة .

هشام (متمالك نفسه من إفراغ ما في جوفه ، و مشعلًا لفافة تبغ أخرى) : تقوموا بتجميعها ! هل هناك من يساعدك ؟

رزق : بالطبع ، معي ثلاثة من الأشقاء ، أنا أكبرهم ، لكنهم في البلد الآن .

و قد اقترب الليل أن يأتي كي يلتهم و يبدد سطوة النهار ، يتبادر لمسامعهما صرخات حثيثة متصاعدة بأنين عن بعد لفتاة و كأنما تستغيث من أحدهم ، ترتعد فرائس هشام ، يقترب من رزق و كأنما يريد أن يحتمي به ، رزق الذي لم يحرك ساكنًا أو كأنه لم يسمع ما سمعه هشام .

هشام (بصوت خافت) : ألم تسمع هذا ؟

رزق : أتقصد دلال ؟ بالطبع أسمع .

هشام : دلال ! من هي ؟

رزق (ممسكًا بيد هشام و قد توجها لمقبرة على بعد أمتار ، و يزداد الصوت كلما اقتربا) : هذه مقبرة دلال ، نحن حقًا لا نعلم اسمها ، و لكنني سميتها دلال .

هشام : و ما قصتها ؟

رزق : هي فتاة لم تتجاوز السادسة عشر من العمر ، تم اغتصابها بشدة و على ما يبدو من عدة أشخاص و ليس شخص واحد ، و من ثَمَّ قتلها و إلقاء جثتها بدروب صحراوية ، و نسمع صوتها كل يوم حينما يقترب الغروب .

هشام : و لماذا هذا التوقيت تحديدًا ؟

رزق : قد يكون هو توقيت الحادث الذي وقع لها ، الله يرحمها ، اطلب لها الرحمة و السكينة كي تهدأ روحها (ينظر لهشام محملقًا بتمعن و هو يدعو لها و بالفعل سكت الصوت متبخرًا) .

هشام : هذا أمرٌ غريب (يطمئن على استمرار التسجيل الهاتفي) ، ما هذا ! (ينظر هشام لمقبرة بالجهة المقابلة و يتجه إليها مسرعًا رفقة رزق المتثاقل بخطواته قليلًا) ، ما هذا ؟ و كيف ؟

يبدو على المقبرة من الخارج آثار حريق بصورة كلية ، التف حولها هشام ، آثار الحريق تلفها بالكامل .

هشام : ما هذا ؟

رزق : هذه مقبرة عابد .

هشام : عابد ! و من هذا العابد ؟

رزق : هذا العابد لم يكن عابدًا إطلاقًا .

هشام : لا أفهم قصدك ، ماذا تعني ؟

رزق : عابد كان دجالًا ، لكنه دجال على مستوى عالٍ من الحنكة و الخبرة و الصيت أيضًا ، فقد ذاع صيته داخل و خارج البلاد .

هشام : خارج البلاد !

رزق : نعم ، و هذا كان سببًا في علو شأنه و منزلته و أيضًا ثرائه الفاحش ، فقد ذاع صيته بين أمراء و شيوخ الخليج ، و كانت تأتي له الطائرة الخاصة نهارًا و تعود به ليلًا إن أراد ، و لكنه عائدًا محملًا بخيرات لا تعد و لا تحصى ، حتى أنه اعتزل قضاء حاجة فقراء المصريين ، أصبح الشيخ عابد مختصًا بشئون علية القوم داخل البلاد و خارجها ، أتعابه كانت باهظة ، كانت تصل لأرقام من التي تحمل خمسة أو ستة أصفار أحيانًا ، كانوا ينعتونه بالشيخ عابد ، و لم يعلموا أنه يعمل بالسحر الأسود الذي يكفر فيه بكل شيء ، حتى بالخالق عز و جل (استغفر الله العظيم) .

هشام : و كيف علمت أنت ؟

رزق (ينظر له محملقًا بتمعن كالنظرة السابقة أو أعمق لعدة ثوان) : من الأمين توفيق و من محضر الدفن .

هشام : و كيف مات ؟ و لماذا آثار الحريق تلك ؟

رزق : مات فجأة بعد جلسة تحضير و علاج ، كان جسده ينتفض بعد موته مصدرًا دخانًا أسودًا من فمه و من أذنيه و من أنفه ، صار الدخان كذلك حتى عندما قمنا بدفنه ، و قد حير معه الطب الشرعي في تحديد السبب ، فتم تحرير سبب الوفاة أنه سكتة قلبية مفاجآة ، و لكن كان هناك قرارًا سريًا بأن يُدفن هنا بمقابر رزق ، و كأنما مقابر رزق هي العقاب لكل من تُسّول له نفسه ارتكاب الجريمة و الرذيلة و المعصية (مصطنعًا الدعابة) ، أو ربما هو العقاب لنا على تواجدنا هنا ، و من حينها و المقبرة تعج بآثار الحريق ، نقوم بتنظيفها دوريًا و لكنها تعود كما كانت ، لا تشغل بالك يا أستاذ هشام ، فهذه أمورٌ طبيعية .

هشام (مشعلًا لفافة تبغ أخرى) : طبيعية !

رزق : بالطبع ، أليسوا قتلى و لكل قتيل عفريت ، هذا أمرٌ بديهي .

هشام : لقد أوشك الليل أن يغمرنا ، و أنا لست على وفاق دائم مع هؤلاء العفاريت (يصطنع الدعابة و الثبات ، لكنه كان مرتعد الأوصال ، أغلق مسجل هاتفه) ، عمومًا أنا عاجز عن الشكر يا عم رزق ، لقد أرهقتك كثيرًا.

يبادر هشام بإعطاء رزق ورقة من فئة المئتين جنيه ، و لكن رزق ينظر له و يعيدها إليه وسط استغراب هشام ، كيف لأحد في هذا الزمن أن يرفض مالًا قد أُعطى له و خاصةً إن كان مقابل مجهود و تعب و ليس إحسانًا ، و قبل أن يردف هشام و يسأله عن سبب ذلك ، يسمع هشام من يهتف و يقول (لا) بصورة متكررة و بصوت أجش ، لم يشعر هشام بالإحراج من رزق حينما ارتجف جسده بشدة ، و لكن لم يمنعه ذلك من أن يتوجه رفقة رزق لمصدر الصوت ، توجها إلى مقبرة في ركن بعيد نسبيًا من المقابر ، و ما زال الصوت مستمرًا ، حتى وصلا ، فأعاد هشام تشغيل مسجل الهاتف وأشعل

لفافة تبغ أخرى ، فقد أصبح شرهًا للتدخين اليوم على غير العادة ، و هل اليوم كغيره؟

هشام : من هذا ؟

رزق : المظلوم .

هشام : من ؟

رزق : دكتور أحمد الصاوي الشهير بالمظلوم .

هشام : شهير بالمظلوم وسط من ؟

رزق : هنا وسط رفقائه .

هشام : وسط رفقائه ! و هل يتسامرون بصفة يومية أم أسبوعية مع عطلة نهاية الأسبوع ؟

رزق (محاولًا كتم غيظه و غضبه) : لا يا أستاذ هشام ، للأرواح أحاديث لا تعلمونها أقصد لا نعلمها ، أما عن مواعيد تسامرهم ، فيعلم ذلك الله وحده .

هشام (و قد بدا على وجهه شعوره بالندم على ما أسلفه من قول) : لا أقصد تهكمًا و لكن ...

رزق : لا يهم ، ليس هناك اعتذار ، هو عالمٌ خفي ، عالمٌ لا نملك له سوى الدعاء بالرحمة .

هشام : بالفعل يا عم رزق ، و لكن ما قصة المظلوم ؟

رزق : هو الدكتور أحمد الصاوي و شهرته هنا المظلوم ، لأنه حقًا مظلوم .

هشام : كيف ؟ و لماذا توقن بذلك ؟

رزق : سأخبرك بقصته كاملة و لكن لا تقاطعني ، المظلوم تم إعدامه بتهمة قتل زوجته ، كانت أيضًا دكتورة جامعية مثله ، تم اتهامه و إعدامه ظلمًا بعد أن تجمعت ضده كل الأدلة و البراهين بصورة غريبة ، نُسجت الأدلة حول عنقه بدهاء و ربما بسوء حظ ، زوجته كانت عكس ما يبدو عليها ، لم تكن الملاك الطاهر أو الحسناء البريئة ، كانت خائنة ، دنست ميثاقهما الغليظ ، كانت على علاقة وطيدة مستمرة بشخص غيره ، كان سمير دكتورًا زميلًا لهما بالتدريس الجامعي ، كان وسيمًا أبيض البشرة معسول اللسان مشهور وسط أقرانه بأنه (دونجوان) ، سمير كان متزوجًا و على الرغم من ذلك استطاع أن يغويها و يستدرجها لبراثنه ، حتى توسدت فراشه أو ربما توسد هو فراشها ، المظلوم كان ذلك الشخص الطيب المحبوب بين الأوساط الجامعية ، بين الطلاب و الأساتذة ، لم يشأ الله لهما الإنجاب ، ربما كان هذا سببًا مباشرًا لبدء بغض تيسير و خيانتها له أو ربما كونه غير وسيم كـــ (الدنجوان) ، هو كان أسمر البشرة متوسط القامة ، لكنه كان طيب الخلق مثابر ودود صبور .

(يسترق هشام السمع مشدوهًا)

يستطرد رزق : حينما تنامى لعلم دكتور أحمد الصاوي ما يحدث و عرف بتلك العلاقة بناءً على تداول الأخبار بالوسط الجامعي حول ذلك ، حتى انهار عصبيًا و اعتدى عليها لفظيًا بالجامعة و هددها بالقتل وسط عائلتها التي استنكرت ادعاءاته بالطبع و التي أنكرتها أيضًا بشدة و استنكار و اندهاش دكتورة تيسير و اتهمت الصاوي بالجنون ، لم تنتهِ القصة عند هذا الحد ، بل رغبت تيسير بطلب الطلاق و لم تُبلغ الصاوي بذلك ، بل أبلغت سمير و قد

طلبت منه أن يتزوجا بعد إنهاء إجراءات طلاقها ، لكنه رفض و حاول أن يراوغها ، و لكنها هددته بفضح أمره لدى زوجته ، يبدو أنها قد أحبته بشدة (يبتسم رزق) ، فما كان إلا أن نشبت مشاجرة بينهما في أخر لقاء بسيارتها على أحد الطرق البعيدة ، حتى احتدم التراشق اللفظي و زادت وتيرته ، فما كان من سمير إلا أن قتلها بسلاح ناري كان في سيارتها (السلاح الناري المرخص باسم زوجها دكتور أحمد الصاوي) و فر هاربًا ، كل الأدلة كانت تنسج حبل المشنقة حول عنق الصاوي و لم يستطع إثبات تواجده بمكان معلوم وقت حدوث الجريمة ، علاوة على سلاحه المرخص الذي أُرتُكبت به الجريمة ، فضلًا عن تهديده لها بالقتل أمام الجميع ، و مع لحظات إعدامه الأخيرة كان مُصرًا على أنه مظلوم و كان دائمًا يصرخ قبل التنفيذ بذلك و بصيحة (لا) .

هشام (و قد عُقد لسانه قليلًا ملتفتًا نحو المقبرة التي تلاشى صوت المظلوم منها الآن) : و من أين لك بكل تلك المعلومات يا عم رزق ؟

ينظر هشام لرزق بعدما لم يتلقى جواب و لكن.....

لم يجد رزق ، هشام لم يجد رزق ، بل رأى من يجري نحوه بسرعة شديدة لا يشي بها وزنه ، شخص ضخم الجثة ، بشارب كث و لحية لم تحلق من باب الكسل ، طويل عريض المنكبين ، بسروال رياضي مهترئ و قميص مخطط طوليًا ، يجري نحو هشام و هو يصيح : من أنت ؟ و ماذا تفعل هنا ؟

هشام (و قد تلعثم مجددًا محدقًا بهذا الشخص) : أنا ! من أنت ؟

الرجل : أنا رزق حارس المقابر ، من أنت ؟ و كيف دخلت لهنا ؟ و ماذا تريد؟

هشام : رزق ! رزق من ! رزق كان هنا منذ قليل و لا أعلم أين ذهب !

الرجل : أنا رزق حارس المقابر ، و لم أشاهدك إلا الآن .

هشام : و أين كنت ؟ و من كان هذا الرجل ؟

رزق الحقيقي : كنت نائمًا بغرفتي و لم أشعر بوجودك إلا الآن ، أي رجل تتحدث عنه ؟

هشام : رجل أسمر بقامة متوسطة و جلباب رمادي .

رزق الحقيقي : هاااا لقد كنت ضحية جديدة للمظلوم ، و لكن لا خوف عليك ، المظلوم لا يؤذي أحد .

هشام (بتلعثم و حيرة شديدين ، و بعد صمت منتظرًا أن تخفت ضربات قلبه) : المظلوم ! هل كنت أتجول مع عفريت طوال الوقت (ينظر للسماء و قد كساها الليل) ، كيف هذا ؟

رزق الحقيقي : عليك أن تغادر الآن قبل أن ....

هشام : قبل ماذا ؟

رزق الحقيقي : قبل أن ترى و تسمع ما لا يُحمد عقباه .

هشام (يطفق بالسير السريع و الذي يصل للجري و هو يستعيد سماع مسجل الهاتف ، الذي لم يسجل شيئًا ، كل شيء قد مُحيَّ تمامًا)

أحمد جستابو

يتأكد من وصد كافة نوافذ منزله قبيل خلوده للنوم ، تلك النوافذ المحمية بأعواد حديدية مُحكمة التثبيت و الغير قابلة للكسر ، يعيد الكرّة ، ثم يعرج على باب المنزل ليتيقن أن الأربعة مزاليج مُحكمة الغلق ، يمر بالمطبخ ليطمئن على إغلاق محبس الغاز ، يخلد للفراش و قبل أن تغط عيناه في نوم لم يكن عميقًا من قبل ، يتناول هاتفه المحمول كي يتأكد من تفعيل خاصية المنبه و التي بطبيعة الحال مفعلة بوضع استمراري ، ثم يغمض عينيه و قد استراح من حمل اليقظة.

أحمد عبد المجيد شعلان الشهير بأحمد جستابو ، ٤٩ عام ، أبيض البشرة ، نحيف ، ذو عينين جاحظتين يبدو عليهما اختلاط اللون الرمادي بالأخضر بصورة غريبة ، شعر بني لم يخالطه الشيب رغم التقدم في العمر ، ذقن ناعمة كجندي بساحة التدريب و قد عُرف بذلك الاسم ليس لكونه مرشدًا للشرطة أو دائم التلصص على أسرار غيره ، و لكن لأنه متشككًا في كل شخص و كل شيء ، في المحيطين من أقارب أو زملاء عمل ، متشككًا في حظه من الدنيا ، متشككًا في القادم من المستقبل ، أحمد جستابو لم يولد جستابو و لكنها تراكمات حياتية و أزمات متتالية جعلته هكذا ، شادية خطيبته السابقة منذ عشرين عامًا و التي هجرته بعد قصة حب ملتهبة ، لتلحق بزيجة تراها فرصة كبرى ، و قد تزوجت بأحد ميسوري الحال ، أشقاؤه ذكورًا و إناثًا و الذي تولى رعايتهم و تدبر أمورهم بعد وفاة والده الاسطى عبد المجيد شعلان (الحداد) ، لم يدخر أحمد جهدًا في ذلك ، و لكن تبدّل الحال كليًا بعدما ساهم بشكل كبير في إتمام زواجهم ، فتنكروا له أو بالأحرى أصبح بالنسبة لهم مجرد ماض و ليس شقيقهم الأكبر الذي تولى مهام الوالد ..

استيقظ أحمد في موعده و قبل رنين منبه الهاتف ، دارت عيناه بمحيط الغرفة ذهابًا و إيابًا للاطمئنان على شيء ما لا يعلمه ، غرفته التي لا تحتوي سوى على فراش و منضدة صغيرة و خزانة ملابس معدنية ذات ضلفة واحدة ، أما باقي المنزل فهو خاوٍ من الأثاث إلا ما ندر ، تلفاز صغير على منضدة صغيرة ببهو المنزل لا يرافقه سوى ثلاثة مقاعد بلاستيكية لا تخلو من بعض بصمات طلاء قديم ، موقد غاز مسطح بالمطبخ ، علاوة على بضعة أكواب و أطباق و إنائين متوسطي الحجم للطهي ، تناول أحمد فطوره المعتاد و المكون من رغيف خبز محشو بالجبن الأبيض بنكهة الزيتون مصحوبًا بقدح من الشاي المُحلى باللبن و هو المشروب المفضل لديه ، شرعَ يهندم ملابسه من بنطال قماشي و قميص لا بد أن يكون أبيضًا ، دلف خارجًا من منزله ، محتاطًا بغلق الباب الخشبي و الآخر الحديدي ، وقف أسفل بنايته ، تزوغ عيناه على المارة ، و كأنما يترقب حدثًا ما أو شخصًا ما ، بدأ يرقب بنظراته من ينظر إليه ، توارى خلف إحدى الشجيرات بالقرب من البناية حتى يتيقن من عدم مباغتة أحدهم له دون أن يراه ،

نمط يومي لأحمد جستابو قبل أن يغادر لمصنعه ، حيث يعمل أمين مخازن بأحد مصانع الأدوية بالقاهرة ، استقل حافلة الأجرة الصغيرة التي تنقله لمحيط عمله ، و بالطبع لم يخلو الأمر من مشاحنة أو أكثر مع السائق حول تغيير تعريفة الأجرة أو تبديل إحدى العملات الورقية الممزقة ، أو مع أحد الركاب لفتح أو غلق النافذة المتاخمة له ، ملامح أحمد كانت قد نُحتت بذاكرة بعض سائقي حافلات الأجرة و بالطبع كانوا يرفضون بحدة أن يقلوه .

ما أن هبط جستابو من الحافلة حتى ترجل ما يقرب من عشرين دقيقة حتى مصنع الأدوية ، ألقى التحية مقتضبًا على رجال أمن البوابة ، و ما أن عبرها و بعد عدة خطوات حتى التفت خلفه ليباغتهم أثناء اقتفاء أثره ، هو

يدرك جيدًا مدى تلذذهم بالنميمة عليه ، أحيانًا بإيماءات سرية و أحيانًا بابتسامات خبيثة ، وضع جستابو توقيعه بدفتر الحضور و ذهب لفتح مخزنه ، و بدأ يومه الوظيفي المعتاد و الذي لا يخلو من العديد و العديد من المشاحنات مع الزملاء ، هو يعي جيدًا أن الجميع يسعى للسطو على مخزنه و بعضهم يتحين الفرصة لذلك ، إن لم يكن محتاطًا سيكون في عداد المختلسين يومًا ما .

يصر هاتفه المحمول على الرنين ، يرد بعد حين ليُفاجأ بشقيقته الصغرى التي تشكو له سوء معاملة زوجها الدائمة و التي آلت لمشاجرة مؤخرًا ، اشتاط جستابو غضبًا رغم أن شقيقته تلك لم تزره منفردة أو بصحبة زوجها بعد الزواج ، انتفخت أوداج أحمد و أغلق معها المكالمة ، و مسارعًا الاتصال بزوجها معنفًا إياه و مؤنبًا على ما اقترف ، أحمد سريع النسيان و التسامح خاصَّة عندما يتعلق الأمر بوالدته المسنة أو بأشقائه .

انتهى يومه الوظيفي و بادر أحمد بالعودة أدراجه بنفس نمطه اليومي ، مبتاعًا علبة الكشري التي تحتل نصف عاداته الغذائية الشهرية ، التهمها سريعًا و ما قد برح من ذلك ، حتى باغتته طرقات على باب منزله ، وقف أحمد مشدوهًا و اتجه نحو الباب بخطوات حثيثة متثاقلة ، لم يُرد أن يعرف أحدهم بوجوده ، هو لا يعلم من بالخارج و ما مدى الأذى الذي يأسره له ، التقطت عيناه بخفة تلك العين السحرية المألوفة بمنازل المصريين ليرى من الطارق ، يبدو أنه قد التف ضجرًا ثم أعاد الكرّة مواجهًا الباب و قد أطلق صوته الجهوري (افتح يا أحمد .....) ، هو اسماعيل زوج شقيقة أحمد و الوحيد المتآلف معه ، سارع أحمد بفتح الباب بعد أن التقط أنفاسه مطمئنًا أن القدر أمهله مزيدًا من الوقت قبل أن يقضي عليه ، و يبدو أن أحمد قد تذكر شيئًا ما ....

اسماعيل : لماذا لم ترتدي ملابسك بعد ، الساعة الآن السابعة ..

أحمد : واقع الأمر أنني لم أتذكر الموعد سوى الآن ..

اسماعيل : جستابو ينسى شيئًا !!! هذا أمرٌ محال . .

أحمد : ربما جستابو ينسى فقط هذا النوع من المواعيد ..

اسماعيل : الزواج رغم أنه شر لا بد منه ، لكنه استقرار و راحة بال ، فلمَ خشيته!!

أحمد : لا أخشى شيئًا ، لكنني أريد التأني في ذلك الأمر ، فلست ممن يروق لهم الندم أو البكاء على اللبن المسكوب .

اسماعيل : يبدو و كأنك تأنيت كثيرًا ، فقد أوشكت على الخمسين ، أسرع كي لا نتأخر .

ينظر له أحمد نظرة تحمل لعنات مكتومة ، قائلًا : يبدو أن العروس أيضًا تأنيت كثيرًا .

اسماعيل : هويدا لم تتجاوز الأربعين بعد ، و ملامحها تبدو أصغر بكثير .

يهندم أحمد جستابو ملابسه متأنقًا قدر المستطاع ، متعطرًا بعطر ليالي الحلمية.

منزل العروس

يدلفا أحمد و اسماعيل لغرفة الضيوف بمنزل العروس بصحبة الحاج توفيق والد هويدا ، يلتفت أحمد جاحظًا عينيه محملقًا فيما حوله من لوحات و صور مثبتة على الجدران ، و كتب متراصة على مكتب بركن الغرفة ، يبدو أنها بعض الروايات الرومانسية ، ينظر جستابو لسقف الغرفة ، متمايلًا بجيده قليلًا ، حتى تدخل هويدا تحمل طاولة عصير أصفر و تقدمه لهما ، يتمنى اسماعيل أن يكون مانجو و ليس برتقال .

ينظر لها والدها و يطلب منها الجلوس ، تجلس هويدا و تواصل النظر لاسماعيل و أحمد مُرحبة بهما ، يستغرب أحمد أنها غير مستغرقة بالحياء المعتاد للبنت في مثل هذا الموقف ، أناملها غير متشابكة ، لا تنظر لقدميها و لا تبدو حمرة الخجل على وجهها ، تبادر هويدا بالحديث وسط اندهاش جستابو .

هويدا : لماذا تأخرت بالزواج يا أستاذ أحمد ، لقد علمت أنك أوشكت على الخمسين

أحمد (ضاحكًا) : تأخرت!! و هل تأخرت منفردًا !!

الحاج توفيق (قاطبًا حاجبيه) : لا يصح هذا الحديث يا أستاذ أحمد .

تقاطعه هويدا : دعه ، أعتقد أن ظروفنا مختلفة ، أنا تأخرت لأن كل من تقدم لي مثلك

أحمد : مثلي !

هويدا : نعم مثلك ، يرون جميعًا أن البنت ليس لها سوى الرضوخ ، و بطبيعة الحال لن أقبل برجل ضعيف .

أحمد محدقًا فيها بشكل مستمر : مثلي ! و ضعيف ! من تظنين نفسك (قالها بنبرة حادة قاربت على التلاشي و لا تخلو من الاستثارة العصبية ، حيث انتفخت أوداجه بشدة و اتسعت حدقتا عينيه) .

هويدا : للأسف الصراحة والوضوح و المواجهة أشياء يكرهها الرجال أو أشباه الرجال ، عفوًا فأنا لا أقصد الإهانة و لكنها الحقيقة .

أحمد : إذن فالمطلوب قدرٌ من الصراحة ، فليكن لكِ ما شئتِ ، فقد تأخرت لأنني لم أجد فيهن البنت التي تستحق أن تؤتمن على بيتي و اسمي و تربية أطفالي ، لم أجدها و يبدو أنني لن أجدها .

انطلقا أحمد و اسماعيل (الذي لم ينبس ببنت شفة) خارج المنزل و هما متجهمان ، لم يتبادلا أطراف الحديث كثيرًا ، توجه اسماعيل لمنزله مطأطأ الرأس مما فعله به أحمد جستابو ، أما جستابو فلم يكن الأمر يعنيه من قريب أو بعيد ، فهو معتاد على ذلك ، من رفضه أو رفض الطرف الآخر ، الأمر لا يعد مفاجأة ، جستابو لا يثق بأية امرأة ، و لم يكن بيوم عاقد العزم على إتمام أي زيجة حتى و إن أعجب بإحداهن .

توجه أحمد لمنزله ، بعد أن احتاط أن أحدهم لا يراقبه ، و ما أن وصل لمحيط البناية التي يقطنها ، حتى شرع في الدوران حولها عدة مرات ، ثم توقف بعيدًا متواريًا بين الشجيرات ، يحاول أن يلتقط من سيباغته أو من يراقبه أو ينتظره ، ثم دلف لمنزله و صنع لنفسه قدح الشاي الممزوج باللبن المعتاد مصحوبًا برغيف خبز محشو بالجبن الأبيض بنكهة الزيتون ، تأكد من إغلاق مزاليج الباب جيدًا و كذلك النوافذ و محبس الغاز ، ثم خلد إلى النوم ، و بالطبع قبل ذلك تيقن من تفعيل خاصية التنبيه بهاتفه ، و الذي كان مفعلًا بطبيعة الحال .

.

تاشاي

لم يبلغ بعد عامه الألف فوق سطح الأرض ، إلا أنه قد بدأ يشعر بالملل و الرتابة ، و ربما قد بدأ يشعر بالندم ، لم يشأ الحظ طوال تلك الفترة أن يجعله راضيًا أو سعيدًا أو منتشيًا ، لم تُجلب له الحياة التي كان يحياها من قبل .

قبل ألف عامٍ تقريبًا

هيئة محكمة تُعقد بساحة كبيرة جدًا في فضاء خارجي و ليس بين كتل بنائية خرسانية معتادة ، يظهر في الأفق تسعة قضاة لا يعوزهم الهيبة و البأس ، تسعة قضاة يتوسطون الساحة وقوفًا و لكن لا تظهر سيقانهم كاملة ، ليس عيبًا أو ضعفًا و لكن استكمالًا لمشهد الهيبة حينما يمتزج بالغموض و الرعب ، يتطاير الشرر من أعينهم الجاحظة ، يبادر أحدهم و يبدو عليه أعظمهم و أكبرهم بالحديث ، يوجه حديثه لهؤلاء الجالسين بشكل دائري عن بعد بتلك الساحة ، ينظر لهؤلاء الحشود الكبيرة من الجمهور و هذا ما يبدو عليهم ، يتحدث بلغة خشنة حادة يفهمها الحضور ، و يتلو عليهم الآتي :

تُعقد هيئة محكمة قبائل أوركان السفلية بدعوة من الملك ظيعام لمحاكمة المدعو تاشاي ...

يظهر بالساحة على مقربة من القضاة و بمواجهتهم شاب يجلس القرفصاء ، مقيد بأغلال تواري ملامحه من كثرتها ، يبدو عليه الإعياء و لكن لا يظهر عليه الندم ، تشي ملامحه بكبرياء تام و إصرار و تعمد و يقين عما فعل .

يستكمل كبير القضاة كلمته :

و بعد اكتمال المداولات و مراجعة قوانين قبيلتنا ، و بعد وصولنا ليقين تام من أن تاشاي البالغ من العمر ثلاثة مائة عام بعد الألف ، قد أذنب بحق قانون و شعب و حاكم أوركان ، حيث قام بإغواء الأميرة تيلاي ابنة ملكنا ظيعام باسم الحب و هو ما يعد جريمة لا تغتفر بقوانين قبيلتنا ، فأية علاقة تقام بين نسل ملكي و بين أحد العوام هي علاقة غير شرعية محرمة و مجرمة ، لذا قررت هيئة محكمة قبائل أوركان السفلية و قد راعت حداثة سن المتهم ، بأن يتم نفي تاشاي خارج قبيلتنا ، و خارج جميع قبائل الجن السفلي ، و أن يتم عزله لفترة ثلاثة آلاف عام فوق سطح الأرض ، و أن يحيا بين الآدميين عقابًا له عما اقترف ، على أن يمنح بتلك الفترة صلاحية التخفي أو التجسد بصورة بشر حفاظًا على سلامته ، رُفعت الجلسة .

<u>الوقت الراهن</u>

يظهر تاشاي بصورة صياد عجوز ممدد الجسد على سطح قاربه الصغير و الذي يرسو على مقربة من ضفة بحيرة بساعة مبكرة من النهار ، ينظر للسماء بينما يداعب لحيته البيضاء ، يتأمل أسراب الطيور المغردة ، يدلف لذاكرته ليرى تيلاي و لحظات عشقهما القليلة على ضفاف بحيرة كتلك ، و لكن بأوركان الحبيبة ، يتذكر حروف وعدها له ، كذلك يترامى لمخيلته و لوجدانه دفء عناقهما ، يسري بشفتيه ترياق قبلتها الحارة الساحرة .

يظهر على الريس توكل أو تاشاي ملامح الملل و الحزن و ربما الندم ، يطلق تنهيدة عميقة مفادها أنه لم يمضي سوى ألف عام ، و يتبقى

من الأعوام ألفان حتى ينتهي العزل ، بينما يستعيد لحظات الهيام و العشق ، يهتز المركب أسفله و يترنح بشدة ، و كأنما هناك شخص ما يحمله و يباغته و ربما يريد له الضرر و الأذى ، يستقيم توكل بجلسته ، يستشرف بحسه السفلي السابق ما يحدث ، لا يستطيع التنبؤ بشيء ، يخالطه الخوف ، و هي أول مرة يحدث له ذلك منذ أن وطأت قدماه الأرض ، يحاول النظر بجانب المركب هنا أو هناك ، لكن لا طائل من ذلك ، ، يزداد ترنح المركب بشدة حتى ينقلب رأسًا على عقب ، و يسقط توكل بالماء ، على أصعب حال إن لم يستطع إعادة المركب لوضعه الطبيعي ، من المؤكد أنه يستطيع النجاة ، فهو على بعد خطوات من ضفة البحيرة ، يحاول إعادة المركب لسابق وضعه و لكن لا يستطيع ، يحاول التشبث به و محاولة جره للشاطئ ، أيضًا لا تطاوعه قواه على ذلك ، يقرر ترك المركب و أن يسبح ليعود للشاطئ ، صارت أطرافه مجمدة أو ربما مشلولة ، لا يقوى توكل على الحركة ، يحاول أن يستنجد بأحدهم و لكن لا وجود لأي شخص بهذا التوقيت ، ينتابه إحساس الخوف الممزوج بالرعب ، لزامًا عليه الآن أن يكون تاشاي و ليس توكل ، قرر أن يختفي ليكون تاشاي و لكن بلا إرادة مستجابة و بلا تحول يحدث ، هناك ما يسحب توكل لأسفل ، يجذبه بشدة و بسرعة ، شيء خفي لا يراه توكل ، يشهق توكل و يزفر بشدة حتى يهبط أسفل سطح الماء ، يذهب توكل في رحلة بعيدة على عمق بعيد ، لم يكن هو أبدًا العمق الطبيعي للبحيرة ، يستمر في الانزلاق السريع و قد تلاشت القوة الجاذبة ، الانزلاق و التوغل لأسفل طبيعي تلقائي ، ربما بلا إرادة و ربما بإرادته ، بدأت أنفاسه تعود لسابق عهدها الطبيعي رغم كونه أسفل

الماء ، يعبر صخور و عشب و غيرها ، لينتقل من مكان لآخر و من عالم لآخر .

يفتح عينيه ليفاجأ بأنه خارج إطار الماء نهائيًا ، هو الآن بمكان لم يكن ليخطر بباله ، هو كان قد اقتنع بأنه في سبيل الموت و الفناء ، و لكن ما وجده و رآه جعله مشدوهًا للغاية ، توكل بنفس ساحة المحكمة التي قد حُوكم فيها من قبل ، و على ما يبدو أنها نفس هيئة القضاء التي حاكمته ، هو لم يعد توكل ، نظر لملامحه و جسده ، لقد صار تاشاي .

يجلس تاشاي نفس جلسته الأولى منذ ألف عام أمام نفس هيئة المحكمة ، و لكن الآن غير مقيد ، ينظر للقضاء ، يبدأ القاضي الأكبر بتلاوة الآتي :

نظرًا لانقضاء ثلث مدة العقوبة ، و طبقًا لقوانين أوركان ، فمن حق أي شخص آخر غير تاشاي بأن يطالب بإعادة محاكمته و النظر في إمكانية العفو عنه ، و لذا و بعد تقدم أحدهم بذلك ، فتمت إعادة

المحاكمة و بناءً على كون الملك ظيعام قد توفي و لم يعد ملكًا و بعدما تنازلت ابنته تيلاي عن العرش و صارت من العوام و ليست من الأسرة الملكية الحاكمة ، فقد صارت التهمة التي حوكم بها تاشاي كأن لم تكن ، لذلك قررت هيئة محكمة قبائل أوركان السفلية العفو عن تاشاي و عودته للقبيلة كإبن من أبنائها ، رُفعت الجلسة.

يلتفت القاضي بعد انتهائه من تلاوة منطوق الحكم ليحدث تاشاي مبتسمًا : أنت مدين بالشكر و العرفان للجميلة تيلاي (مشيرًا إليها) .

ينظر تاشاي حيث أشار القاضي ، ليجد تيلاي و قد اعتلت أساريرها الفرحة و السعادة الغامرة ، و قد ظهرت بعينين لامعتين تشيان بعشق المحب و صدق وعد أحرفه .

مورستان

مها العلايلي المذيعة الأشهر بالوطن العربي و صاحبة البرنامج المتميز (خارج

الصندوق) بقناة الشمس ، تطل مها على الهواء مباشرًة بملامحها الحادة الجادة و التي لا تقوضها تلك الابتسامة الخفيفة ، ترتدي تنورتها السوداء القصيرة بمحازاة الركبة و كنزتها الحمراء و التي لا تقل جمالًا و إثارة عن تلك التنورة ، تترك مكتبها الأنيق و تقف لتترجل على المسرح (الذي كان أكبر من كل الحلقات السابقة) ، و تبدأ حلقتها اليوم (و بعد تصفيق حاد من الجمهور الحضور) :

الليلة هي أخر حلقات خارج الصندوق لعام ٢٠٢١ و بعد قليل سيبدأ عام جديد ، و لكن قبل ذلك نود أن تكون حلقة ختام و وداع العام هي الحلقة الأكثر تميزًا على الإطلاق ، حلقة اليوم و هي مطولة تم الإعداد لها لفترة طويلة تتجاوز الشهرين ، عنوان حلقة اليوم هو (مورستان) ، تلك الكلمة التي يقال أن أصولها فارسية و البعض يرجعها لأصول تركية ، أيًا كان فهي تعني مستشفى الأمراض النفسية أو العقلية ، رأينا أن تكون الحلقة بهذا الاسم بعد أن صارت مصر بحق مورستانًا كبيرًا ، و أعتقد أنه لا يوجد معارض لهذه الحقيقة ، (تترجل مها بانسيابية على المسرح المخصص لتلك الحلقة و بخلفية المسرح شاشة عرض ضخمة و يبدو أنها ستستخدم لعرض التقارير المصورة) و تستطرد :

واقع الأمر لقد وقعت أنا و فريق الإعداد في حيرة كبيرة ، لا نعرف من أين نبدأ ، هل بترتيب حدوث الوقائع أم بحدتها كبرى كانت أم صغرى ، الحقيقة أننا أجرينا ما يشبه الاقتراع الآلي لنرتب مهازل أو وقائع اليوم ، و ذلك دون

تدخل من أحد ، على أن يُعقب على تلك الوقائع و الغرائب المورستانية أحد خبرائنا في مجال علم النفس و أيضًا أحد أساتذة علم الاجتماع ، فلنبدأ الليلة (تضاء شاشة العرض وسط تصفيق حاد بينما تجلس مها على مكتبها الوثير) .

مها متحدثة عبر شاشة العرض :

نحن الآن أمام حانوت أحد القصابين داخل إحدى القرى بمحافظة الدقهلية (يُسمع صوت مها فقط و الكاميرا مسلطة على حانوت القصاب و الذي يبدو شبه خاوٍ من الزبائن ، يعلوه لافتة .. جزارة سليمان ..) تستطرد :

نحن الآن أمام واقعة هزت الرأي العام و أرقت مضجعه منذ ارتكابها ، واقعة اغتصاب القصاب سليمان عبد العزيز النقلي لابنته ، نعم لابنته ، و قد تناوب الاعتداء عليها لفترة تتجاوز الثلاثة أعوام ، و لم يرحم كونها من ذوي الهمم ، و المدهش أن والدتها قد ساعدته في ذلك ، و لم يكن ليُفضَح أمرهما لولا تدخل أحد الجيران الذي ارتاب يومًا فيما يحدث و تكررت ريبته مرارًا ، حتى أبلغ السلطات الأمنية ، ألم نقل لكم أنه مورستان ، مع الاعتذار للمورستان ، فما نحن بصدده لم يحدث بأي مكان يسود فيه العقل أو الجنون ، الحكمة أو الحماقة ، ما نحن بصدده لم و لن يحدث حتى بعالم الحيوان ، هل يجرؤ أحد أن يقترب من صغير الحيوان ، من المؤكد أنها ستكون نهايته .

تستجمع مها شتاتها و تستكمل : و كما تعرفون نحن لسنا جهة تحقيق أو سرد ، فالقضية قُتلت بحثًا ، و لكننا بصدد تفنيد معطيات و مقومات تلك المورستان ، لماذا فعل سليمان هذا ؟ و هو بعد الكشف الطبي الدقيق عليه ، لم يكن مختلًا ، كان واعيًا ، لم يؤنبه ضميره يومًا ، فقد داوم على فعلته طوال ثلاثة أعوام ، الأمر يدفع للجنون بلا هوادة ، و والدتها من أي صنف من النساء هي ، إن كانت دبة كان حري بها أن تأكل ابنتها ، لا أن تساعد في اغتصابها ، و

قد نالت ما تستحق من سجن مؤبد ، أما سليمان فقد نال جزاءه الطبيعي ، الإعدام ، و إن كان لم ينفذ الحكم حتى الآن .

هل ستكون هذه الجريمة الأولى و الأخيرة بنفس الشاكلة في المجتمع المصري أم أن هناك من سيجرؤ على تكرارها دون ردع حكم الإعدام له ، متى سيغيب المشهد العبثي المورستاني من مخيلة المصريين ، متى سيعود دفء الأسرة و ثقة حضن الأسرة المصرية الذي تزعزع بلا أدنى شك .

تلتقط كاميرا المسرح مها تجلس على المكتب و قد اعتلاها التأثر الشديد ، و قد وضعت كفيها أسفل ذقنها و أغلقت عينيها لبرهة من الوقت ، قبل أن تبادر بالوقوف مخاطبة الجمهور : هذه من التحقيقات التي كانت عسيرة على نفسي و لم أكن أنوي إذاعتها ، لكنه قد حدث ، و أول واقعة كانت.

تجلس مرة أخرى ، و تستعد شاشة العرض لبث الواقعة المورستانية الثانية .

صوت مها ينطلق عبر شاشة العرض (صوت فقط كما اعتادت دون أن يظهر وجهها ، من أمام أرض كانت على ما تبدو زراعية من قبل ، و قد نبشت رقعة كبيرة منها) :

سمير حسين شعراوي المهندس المثقف ، الإسم الذي ظل محفوظًا عن ظهر قلب للشعب المصري ، رآه البعض روبن هود الرجال ، و رآه البعض الآخر شخصية كوميدية تصلح لعمل سينمائي ، بينما رآه القانون و المنطق و العقل سفاحًا ، سمير الذي قضى على حياة أكثر من تسع نساء بصورة واحدة و لكن بتفاصيل مختلفة ، سمير الذي استغل وسامته و لسانه المعسول في الإيقاع بالنساء المطلقات تحديدًا ، و من ثَمَّ يقوم بإغوائهن و ممارسة الجنس معهن ، و بعد ذلك يقوم بقتلهن و الاستيلاء على مصوغاتهن و دفنهن بأرض تابعة له

بأطراف قريته بالجيزة ، و ما زال سمير بانتظار تنفيذ حكم الإعدام بعد أن أكد الطب الشرعي و النفسي سلامة قواه العقلية ، و لكن السؤال الأكثر أهمية ، لماذا ؟ ما الدافع ؟ و هو السؤال الذي رفض الإجابة عنه سمير شعراوي بالتحقيقات ، و إن كان تقرير الطب الشرعي أكد وجود ضعف جنسي لديه ، و هذا ما أكدته مطلقته في تحقيقات النيابة ، تستطرد : ليس هناك أي مبرر لارتكاب جريمة القتل أو أية جريمة مهما كانت ، تلك القبور التي ترونها على الشاشة كانت لنساء وثقن في هذا القاتل العربيد الذي سولت له نفسه الإقدام على ارتكاب جرائمه المركبة ، لا تثقن بمن ليس أهل للثقة ، لا يغرنكن اللسان المعسول فقد يكون خلفه قلب أسود ، و لا تلهيكن الوسامة ، فما تواريه قد تكون أبشع مما تعتقدن ، قالت اخر جملة بصوت محشرج و اختتمت واقعتها بتنهيدة عميقة .

تتحول كاميرا المسرح لمها على مكتبها و التي أردفت : برأيكم من أبشع و أفظع و أكثر غلظة سليمان أم سمير ؟؟

كان سهل أن يُسمع بالقاعة الأسمين بتوازن ، فليس هناك اتفاق صريح و واضح من فيهما أكثر غلظة

تتراجع مها عن كلمة كانت منزلقة على طرف لسانها ، لكنها قوضتها في اللحظة الأخيرة ، ثم تعلن بعد ذلك عن ثالث الوقائع المورستانية بعد قولها غاضبة : هل هناك مصطلح أكثر توافقًا من لفظ مورستان ؟؟

تتحول شاشة العرض للواقعة الثالثة في السهرة المورستانية بالليلة الأخيرة بتلك العام ، تقف مها أمام إحدى البنايات القديمة و يظهر من الجهة الخلفية زرقة البحر لتردف قائلة:

من أمام منزل صباح عبد القادر سيدة الإسكندرية القاتلة و التي كانت سبب اشمئزاز و تقزز المصريين الفترة الماضية ، صباح ربة المنزل الأربعينية و التي قتلت زوجها صبحي السيد و الذي يعمل سائقًا بثلاثين طعنة نافذة بجميع أنحاء جسده ، بمعاونة أحد عشاقها ، نعم أحد عشاقها ، صباح لم يكن لها عشيق واحد ، كان لها أكثر من عشيق بصورة أزواج ، كانت متزوجة عرفيًا من ثلاثة إضافة لزوجها و والد أبنائها ، جريمة قد تفسر لنا لماذا يقول البعض أن نهاية العالم عن قريب ، و تفسر لنا زعم الآخرين لماذا يغضب الله عن هذه البلد ، صباح كانت تتسم بالعدل فكانت تخصص لكل زوج يوم أسبوعيًا ، و باقي الأسبوع لزوجها صبحي ، و كأنما كانت رؤوفة به لأبعد حد ، حتى ذاع صيتها و كشف صبحي أمرها ، فاشتاط غضبًا و قرر أن يفضحها و يطلقها ، و بعد أن نشبت مشاجرة بينهما ، عقدت صباح العزم أن تتخلص منه بمعاونة أحد عشاقها ، و بالفعل تمكنوا منه و أردوه قتيلًا بعد أن سددت له ثلاثين طعنة نافذة بالسكين ، أرادا أن يتخلصا من الجثة ، و لكن كُشف أمرهما ، و هما الآن بانتظار إجراءات التقاضي .

تستطرد مها : جريمة صباح لم تكن الأولى و لن تكون الأخيرة ، جريمة تتكرر بصفة دائمة و مستمرة و بنفس التفاصيل تقريبًا ، جريمة لن يمنعها سرعة التقاضي أو تغليظ العقوبة فقط ، فذلك ما يتم فعليًا ، و لكن سيمنعها بث أسس الأخلاق و القيم بالمجتمع المصري أو بالأحرى إعادة تلك القيم لسابق عهدها ، إحياء الدفء الأسري و الوعي التربوي ، جريمة صباح هي جريمة ليست في حق المرأة فحسب و لكنها في حق الإنسانية جمعاء .

تنتقل كاميرا المسرح لمها على مكتبها و التي وقفت لتحلل قائلة :

المورستان أصبح باتساع شاهق و كثافة عالية ، مورستان يجمع بين أروقته المثقف و الجاهل ، الرجل و المرأة ، مورستان لا تستطيع أن تتوقع من أين سيأتي بالضربة القادمة ، يبدو على كل من بالمورستان أنه أريب و حاذق لما يفعل ، لكن الواقع أن الجميع لا بد أن يخضع لتقويم و تعديل السلوك ، الجميع لا بد أن يخضع للطب النفسي الوقائي ، ليس بيننا من هو بمنأى عن عنبر من عنابر المورستان ، هل ما نحيا فيه مجتمع سوي نأمن فيه على أطفالنا أم أنه مورستان بحق .

و تردف : الواقعة المورستانية الرابعة ليس بها دم مباشر أو قتل أو اغتصاب و لكنها على ما أظن أبشع و أفظع ، و لكم الحكم بعد التقرير.

مها عبر شاشة العرض أمام أحد القصور الشاهقة بصوتها المتحفز :

تأملوه جيدًا ، هذا هو قصر أحمد قاسم رجل الأعمال الهارب بأكثر من عشرة مليارات جنيه ، بعدما انهارت مصانعه و شُرد على إثر ذلك آلاف العمال ، بعدما استباح أموال البنوك من قروض بتسهيلات كبيرة ، بعدما خدع الكثيرين من المودعين و المساهمين بشركاته ، بعدما أدخل البلاد المبيدات المسرطنة و التي دمرت أطفالنا ، هرب بعدما قضى على أحلام الشباب و استولى على مقدمات و مبالغ مالية بمشروعاته الإسكانية الوهمية ، هرب أحمد قاسم و ترك لنا العديد من علامات الاستفهام .

لماذا هرب أحمد قاسم ؟ من عاونه على الهرب ؟

من المسؤول عن مساعدته في الاستيلاء على أموال البنوك ؟

هل ستُحاسب شبكة الفساد أم ستظل لتنتج لنا الكثير من أحمد قاسم ؟

ترى ما هو شعور ضحايا أحمد قاسم و أمثاله من رؤيتهم لتلك القصور الفارهة ؟ ما شعورهم تجاه قاسم و غيره و تجاه البلد ؟ هل هناك أمل في التغيير ؟

مها على المسرح مترجلة :

لك أن تتخيل شاب قد اقترض خمسين ألف جنيه لإقامة مشروع ، لكنه فشل ، أتعلمون ما سيكون مصيره ؟

بالطبع جميعكم تعلمون ، مصيره السجن .

هل يتساوى الجميع أمام القانون ؟

أعتقد أن القانون بريء من لعناتنا ، و لكن المتهم الحقيقي هم القائمون على تنفيذ القانون ، القتل ليس فقط بإراقة و سفك الدماء ، و لكن القتل بوأد الأحلام و الأمل في الغد هو الأكثر تأثيرًا سلبيًا على النفس ، الجريمة الحقيقية هي المرتكبة بحق المستقبل .

خامس وقائعنا في الليلة المورستانية هي جريمة قتل بشعة ، فلنشاهدها .

صوت مها يبدأ مسيرته عبر شاشة العرض : بداخل الشقة الفاخرة بضاحية مصر الجديدة ، (تتجول داخل أروقة الشقة ، من غرفة لأخرى) و تردف : هنا حدثت أبشع جرائم القتل التي لم تكن لتخطر على بال أحد ، حيث قتل رجل الأعمال الخمسيني باهر أبو بكر زوجته راجية سعدي و أبناءه لؤي و سيف بعدما أطلق عليهم جميعًا رصاصات من مسدسه و أرداهم قتلى ثم انتحر ، هذا الحادث الذي ظل حديث الساعة لفترة طويلة ، باهر كان يعاني من أزمات نفسية واكبت أزماته المالية التي أفلسته ، باهر كان شخص هادئ الطباع ، حنون ، محب لأسرته ، لا يدخن ، لا يسهر خارج المنزل ، مخلص

لزوجته ، و لكن ما حدث قد حدث ، و حتى الآن لم تصل تحقيقات النيابة أو تحريات المباحث لسبب محدد دفع باهر لذلك ، تم استجواب جميع أفراد العائلة و الجيران و زملاءه بالعمل أو مرؤوسيه ، هناك من يقول أن الدافع الرئيسي هو الإفلاس و هو ما دفعه لحالة اكتئاب و من ثَمَّ قتلهم حتى لا يصيروا فقراء ، و من الجيران من بقول أن قبل الحادث بأيام كانت هناك مشاجرة بينه و بين زوجته و ظل يصرخ بشكل هيستيري متسائلًا (هم أولاد من ؟) ، و هناك من الزملاء من أدلى بقول مفاده أن باهر كان معتاد الحديث مع نفسه و كأنما هناك أحد معه ، و ذلك منذ فترة كبيرة و ليس قبل الحادث فقط.

تستطرد : سيظل الحادث لغزًا محيرًا ، فالمجنى عليهم و الجاني قد أصروا على دفن الحقيقة معهم .

مها على مكتبها (بعد تنهيدة عميقة) : ليس هناك ما يدفع شخص كهذا لفعل كذلك إلا إذا كان قد أصابه خلل عقلي وقت ارتكاب الجريمة ، لا أستطيع تصديق غير ذلك ، نحن لسنا بمأمن من أنفسنا ، قبل أن نكون لسنا بمأمن من غيرنا .

سادس حكاياتنا الهزلية المورستانية هي ما ستدفعكم حتمًا لتحطيم المسرح و الشاشة و ربما الفتك بي ، لنرى ما حدث و لكن بعد استراحة قليلة .

تعود مها بعد الاستراحة مباشرة لتترك لمها (التي على شاشة العرض) أن تسترسل :

ناصر عبد التواب ضحية الخسة و الغدر و الطمع ، لا أجد الكلمات المناسبة التي تصف تلك القضية ، من أمام دوار ناصر بإحدى قرى مركز جرجا

بسوهاج ، نقف لنقُص على مسامعكم أقذر و أقدم جرائم القتل منذ فجر التاريخ ، فقد كان ناصر هابيلًا ، بعدما أصر شقيقه محمود أن يكون قابيلًا ، قتل محمود شقيقه ناصر بوضَّح النهار بأرض الأخير بفأس قد هوى به على رأس شقيقه ، من المؤكد لو تحدَث ذلك الفأس لأقسم أنه لم يُرد ذلك قط ، و لكنها قلوب البشر التي لا تلين ، قلوب البشر الأغلظ من الحديد ، قتله محمود بعدما استشعر أن لا أحد يراه في تلك الظهيرة بشمس القيظاء ، هوى على رأسه من الخلف مباغتًا غادرًا و استولى على هاتفه و حافظة نقوده ، ثم فر عائدًا لداره ، و كأنما أحدهم قد قتله بغية السرقة ، و لكن بنفس اليوم كان محمود مقتادًا لمركز الشرطة و قد أدلى باعترافات كاملة ، جاء فيها أنه قتل شقيقه طمعًا في أرضه و ماله و زوجته ، كما علل فعلته بأن والدهما قد فرق بينهما في الميراث و قبلها في المعاملة .

مها العلايلي من الوضع جلوسًا على المكتب توقف مقطع الفيديو معتذرة للجمهور عن عدم استطاعته تكملته .

ثم استطردت : أرجوكم لا تسبوا آخر و تنعتوه بالحيوان ، هل رأيتم حيوانًا قد فعل ذلك ، لا أتخيل و لا أعتقد ، كما أعتقد أنكم صرتوا حيارى ، أي حادث أبشع و أكثر فظاظة ، و أنا معكم بنفس الحيرة .

اسمحوا لي أن أنهي تلك المهازل العبثية المورستانية بالمهزلة السابعة و إن كان هناك العديد و لكننا قررنا الآن الاكتفاء بذلك لنتمكن من استضافة خبراء و أساتذة علم النفس و علم الاجتماع.

تستطرد : قم للمعلم و فه التبجيلا ، كاد المعلم ان يكون رسولا...

لتترك الساحة لمها (بشاشة العرض) و قد وقفت بقاعة تدريس جامعية مدرج جامعي ... لكنه خاوٍ لتردف قائلة:...

هنا منبر العلم و المعرفة ، ساحة العلماء و المثقفين ، هنا قاعة التدريس الجامعية ، و التي كان يقف مكاني فيها الدكتور سعيد طايع أستاذ الفلسفة بكلية الآداب ، حيث يبث للطلاب مبادئ الفلسفة و الفكر ، كان حريصًا على علمه كما كان حريصًا على طالباته تحديدًا ، دكتور سعيد المُدان بقضايا جنسية تجاه طالباته ، و قد وصفها القضاء بأنها ابتزاز جنسي في القضايا التي رضخن فيها بعض الطالبات، و تحرش جنسي في القضايا التي أبين الطالبات أن يسايرن مآربه ، بالإضافة لقضايا على شاكلة تكدير الرأي و السلم العام و العبث بمقدرات المجتمع و استغلال سلطاته و نفوذه لابتزاز الطالبات جنسيًا كي لا يرسبن ، و كذلك تسريب أسئلة الامتحانات ، الواقعة مقززة لأبعد مدى ، منفرة لدرجة لا يمكنني تخيلها ، كيف نأمن على بناتنا في المجتمع و قد صار أرقى أركانه علمًا و ثقافة مستنقعًا لمعدومي الضمير و المرضى النفسيين ..

كانت معكم مها العلايلي من خارج الصندوق...

تصفيق حاد تضج به القاعة ، لتباغتهم مها العلايلي و قد وقفت تحيي جمهورها و تستطرد :

بعد مشاهداتي للتحقيقات المصورة كواحدة من الجمهور ، أيقنت أن لفظ مورستان هو قليل مقارنة بما آل إليه المجتمع .

هل ستكون هذه هي نهاية مجتمع كان يومًا ما مجتمع أخلاقي محترم مهذب ، يقف فيه الصغير للكبير بالحافلة ، لا يعلو صوت الصغير بحضور من هم

أكبر ، أقصى معاكسات و مغازلات من شاب لفتاة كانت بنظرة أو صافرة مقتضبة ، و كان ينعت صاحب الفعل حينها بالأرعن ، كان الجميع مقتنع بأن العمل هو غاية تحقيق المراد و الهدف و ليست السرقة أو الطمع أو السطو لما بيد الغير ، كانت الخيانة الزوجية درب من الخيال أو على الأقل شيء من الندرة ، كان الجار لجاره ، الأخ لأخيه ، القناعة كانت كنز لا يفنى ، و الفقير هو فقير النفس و ليس فقير المال ، كان الحب أساس الحياة و الصدق أساس الوعود و التسامح أساس المعاملات ، كانت البساطة تغلب التكلف و الوضوح و الصراحة تقهر المراوغة و الخبث ، كان اللهو و العبث بأي شيء إلا بمصير البشر أو قلوبهم أو حرياتهم .

هل هذه هي النهاية أم هناك بارقة أمل ، ما الأسباب و ما الحل ، هذا ما نعرفه من أساتذة علم النفس و علم الاجتماع بصحبة الزميل سامي عز الدين ، أما أنا فكلمتي لكم قبل أن أغادر (علموا أولادكم أن الحب هو أساس الحياة ، كل عام و أنتم بخير ، كانت معكم مها العلايلي من خارج الصندوق) .

خَلوة الشيخ عارف

التدبر و الزهد سلاحان مهمان في جعبة الشيخ محمد العارف أو الشيخ عارف كما يحلو لمريديه و تابعيه أن يلقبوه ، و كيف لا و هو من ترك متع الحياة و ترفها و وظيفته الحكومية كطبيب من أجل أن يشع علمًا و نورًا و حبًا لمن أراده أو طلب مشورته أو مساعدته ، فهو ساع للخير حيثما كان ، تواقٌ لصنع المعروف و كل طيب من فعل ، قد يمكث الشيخ عارف أيامًا و ليال طويلة بخلوته أو صومعته التي كانت من قبل عيادة خاصة قبل أن يهجر مهنته سوى من بعض الاستشارات المجانية للمقربين جدًا أو للفقراء و ذوي الحاجة ، لا يدخلها بموعد و لا يبرحها بموعد ، قد يأتي إليها أكثر من مرة بالشهر و قد يهجرها لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر ، الأمر هنا لا يعتمد على ميقات محدد بقدر ما يستند لرغبة الروح في التزود بالطاقة المطلوبة .

ليس هناك هاتف أرضي أو حاسب آلي ثابت أو محمول بتلك الخلوة ، كما أن الهاتف الخلوي يتركه الشيخ بمنزله قبل أن يغادر إلى الخلوة ، و من المكروه و يكاد يصل للمُحرم أن يقطع أحدهم خلوة الشيخ بصورة أو بأخرى لأي سبب حتى و إن كان وفاة أقرب المقربين ، إلا مسعد عامل توصيل الطلبات من مطعم محدد ، يمر عليه الشيخ عارف قبيل دخوله الخلوة ليلقنه مواعيد وجباته بدقة فيجلبها له و قد يصطحب له بعض ما يريد من البقالة ، و قد يستغرق الأمر أحيانًا الكثير حتى يستفيق الشيخ من غفوته أو تأملاته ليفتح الباب لمسعد عامل التوصيل ، و لسبب غير معلوم كان موقع الشقة أو الخلوة أو (العيادة سابقًا) غير مكتظ بالسكان ، هو مكان سكني هادئ ، و قد يكون هادئ جدًا ، و بالطبع هو أمر مستغرب جدًا لعيادة سابقة ، و يبدو أن ذلك أمر قد استحسنه الشيخ عارف بتلك الخلوة التي تطل بصورة ما على جبل المقطم ، هدوء و تأمل و تدبر قد يجده البعض ملجأ له حين التذمر و السخط على إرهاصات و

صخب الحياة ، و لكن من المؤكد أن يجده الشيخ عارف حياة يستمد منها الحياة التي ينشدها ، فقد جمَع كل ما يخص العيادة من أدوات و سرير كشف و غير ذلك و أوصد عليه بابًا بغرفة أصبحت مخزنًا لماضٍ أو ربما لحياةٍ سابقة ، و لم يترك بباقي الخلوة سوى أريكة صغيرة و قطعة سجاد و منضدة عليها أدوات بسيطة لصنع الشاي من كوب و سبرتاية و شاي و سكر ، و العشرات أو المئات من الكتب التي تتراص فوق الأرض أفقيًا و رأسيًا ، منها المتهالك القديم و منها الجديد الذي لم يُفتح بعد ، و غيرها الطاعن في القدم كأثرٍ ، قد تخشى الاقتراب منه حتى لا تُسحق أوراقه ، هناك بعض من الكتب المتداول اسمها و أغلبها غير ذلك ، كتب في الطب و الآداب و علم النفس و الاجتماعيات و علم الفقه و التفسير و الحديث و تفسير الأحلام و الروحانيات و تحضير الجن و غيرها ، كتب عربية و إنجليزية و لاتينية ، يبدو للوهلة الأولى أن الشيخ عارف من العلماء المعدودين و المثقفين المخضرمين ببواطن كافة الأمور ، و هو أمرٌ بات شاقًا و نادرًا تلك الأيام الثقيلة من القرن الحادي و العشرين ، حيث قضت وسائل التكنولوجيا الحديثة على الأخضر و اليابس من العقل البشري و على الصالح الخصب من الفكر و الوعي الثقافي الحقيقي إلا فيما ندر ، و يبدو أن الشيخ عارف هو ممن ندروا ، هكذا يبدو ، فُرَغت الخلوة إلا فيما سبق ، فأصبح المشهد العام يبدو أن هناك رجل صوفي زاهد في الحياة الدنيا ، يبتغي مرضاة الله بالتعبد و الزهد و التدبر ، أُوصدت و سُدَّت مواضع النوافذ بالطوب و الحجارة و أصبحت الخلوة بلا متنفس نهائيًا ، فمن أرادها للآخرة فعليه أن يتنفس الطاعة و يرى النور المنبعث من مصباح صغير يتدلى من السقف هالةً نورانية تمحق الظلام و تلعن الظلم ، هي غرفة صغيرة و بهو مثلها و حمام صغير و مطبخ لا حاجة له به و كتب وقراءة و قدح من الشاي كل حين وأخر و صلاة و اعتكاف و زهد و تأمل ، ثم خروج للحياة الخارجية بعد يوم أو أثنين أو أكثر صافِ الذهن متقد النشاط

يشع علمًا و نورًا و نفعًا و عونًا للجميع ، كبطارية الهاتف الخلوي حينما تنفذ لابد أن يُعاد شحنها ، و المعدة حينما تُفرغ ما في جوفها لابد أن تمتلئ من جديد ، هذا عن الماديات ، أما عن الروحانيات فهي أشد حاجة لذلك ، فالنفس إن لم يعاد رأبها ستنتهالك و تتمزق حتى تتآكل .

يراه البعض موفور الحظ لأنه من أثرياء الأقاليم الذين ورثوا أموالًا و أراضي زراعية و عقارات على طبق من ذهب ، لذلك هو فى غنى عن العمل و الكد كما يفعل أقرانه ، فقد افتتح عيادته الخاصة فور تخرجه أواخر تسعينيات القرن الماضي بمساعدة والده ذو الثراء و الصيت ببلدته ، و ذلك بعد تعيينه بالقاهرة بمستشفى حكومي ، فانتقل للحياة بها تاركًا المنصورة بلدته و بلدة أبائه إلا من زيارة كل بضعة أشهر ، نعم هو ذو حظ ، غالبًا لا يتوفر لمن مثله ، كانت الحياة رغدة بالنسبة له ، لم يعرف معنى الحاجة أو السعي خلف هدف ، قد يحبطه و يقوضه قلة الإمكانيات المادية و ضيق ذات اليد عن تحقيقه ، غالبًا لم يمر عليه مثل تلك الحالات منذ نشأته و حتى وقتنا الراهن حيث شارف على الخمسين .

الشيخ عارف ذو اللحية و الشارب الخفيفين ، و الوجه المستدير ، و البشرة البيضاء باحمرار بسيط يشي عن شيخ ذو عز و ثراء و رغد عيش و صحة سليمة لم يزلزلها أمراض العصر ، أو ربما يعود ذلك لأصوله الريفية ، و الجسد الممتلئ قليلًا إن تأملته مليًا ، المتوسط إن تجاوزت ذلك ، بطول متوسط يميل لما هو أكثر من ذلك قليلًا ، الشيخ عارف بما له من حكمة و تدبر و بلاغة قول و فصاحة لسان قادر على تخطي العديد من المعوقات الحياتية اليومية بمنتهى اليسر ، بل و التوغل لداخل الأنفس البشرية التي يخالطها دومًا دون الحاجة لمجهود مضني أو أسانيد لن يفقهها غيره إن طلبها .

لكل شيخ حكيم العديد من الكرامات و ربما تكون المعجزات بنظر العامة ، يتندرون بها لأجيال و أجيال ، ربما يزداد الحدث الواحد تضخيمًا ، ولمَ لا و الجميع متحفز بشدة ليبدو كل فرد منهم هو العالِم الأوحد ببواطن الأمور ، من المفارقات التي يتندر بها التابعون و المريدون هي بقاؤه بالخلوة فترة تزيد عن عشرة أيام بلا زاد أو طعام أو شراب ، هكذا رأوه و أقسموا على ذلك ، و ما جعل الأمر شاذًا هو خروجه بهيئة صادمة ، فقد خرج بصحة كبيرة و وجه يشع نورًا و وزن يبدو زائدًا للوهلة الأولى غير الفاحصة ، هذا ليس بشيخ قد حُجب عنه الطعام و الشراب لعشرة أيام ، فلقد أطعمه الله و سقاه ، هكذا صارت الأقاويل و انتشرت كنار في هشيم ..

تودد البعض لمسعد صبي المطعم بعد هذه الواقعة لمعرفة سر ذلك اللغز و ربما معرفة أسرار غير ذلك شبيهة بتلك المعجزة ، لكنه كان حريصًا ألّا يبوح بشيء ، و قد أقسم لهم أنه لم يحمل له سوى طعام يكفيه ليوم أو يومين بالكاد ، و لا علم له كيف قضى بقية العشرة أيام بلا طعام أو شراب ، و قد أكدت لهم الحاجة زينب الجارة الوحيدة بالطابق الأرضي بأنه لم يدخل أو يخرج من البيت اي شخص منذ خروج مسعد و حتى خروج الشيخ عارف بعده بأكثر من أسبوع ، الحاجة زينب كانت من تلك النساء العتيقات ، فلن تمر شاردة أو واردة من بين يديها إلا و قد تفحصتها من أسفلها لأعلاها و من خارجها لداخلها ، حتى أكياس البقالة لا تسلم من تطفل عينيها ، حتى و إن كانت سوداء قاتمة .

لم يشأ مسعد أن يخبرهم في البداية و لكن بعد حفنة من الأموال و الكثير من الإلحاح و ربما رغبته في الشعور بتقدير الذات حيث أنه يعلم ما لا يعلمون فقد سرد لهم ما رأى ، أخبرهم بعدما جعلهم مشدوهين مترقبين عن هالة النور التي تشع من الداخل بشكل ملفت و الصوت العذب الذي يتلو القرآن و كذا

روائح المسك النفاذة التي تعبر باب الخلوة لتصل لأنفه قبل أن يطرق الباب ، هكذا كان يتوقع دائمًا قبل أن يغادر المطعم حاملًا الطلبات ، يراها و يسمعها و يشمها بعقله و هو يعبر شارع تلو الآخر و بناية تلو الأخرى حتى يصل لباب الخلوة فإذ به يرى و يسمع و يشم ما قد توقع .

و باتت تلك كرامة متكاملة لا مفر منها ، كرامة المكوث بلا طعام أو شراب لعشرة أيام حينما أطعمه الله و سقاه ، و كذلك بركة الخلوة التي يفوح منها المسك و الهالة النورانية و الصوت الملائكي ، و ظلت معجزة يتندر بها المريدون و غيرهم ، و بسببها زاد عدد التابعين بشكل متضاعف ، بل و نُعت من الناس بأنه ولي من أولياء الله الصالحين ، فهو إذَن من بُعث خصيصًا لتلك المئوية رضوانًا من الله لهداية الناس .

تمت بحمد الله

الفهرس

طواحين العشق

بلوك الشرابية

أخر سقوط حُر

رحلة ديالو

كراكيب

العرض الأخير

أدرينالين

قطار

ربما تكون النهاية

سقط عمدًا من التقويم

الراية

مقابر رزق

أحمد جستابو

#تاشاي

#مورستان

#خلوة الشيخ عارف